الفصل الرابع

مختارات من شعر الخنساء

١ ــ العناية بديوانها ، وسلامته نسبيًّا من الوضع

٢ ــ الترتيب الزمنى لشعرها .

الدور الأول : قبل فجيعتها فى أخويها .

الدور الثانى : من مصرع معاوية إلى موت صخر .

الدور الثالث : ما بعد وفاة صخر .

٣ ــ سمات مراثى الخنساء .

خاتمة :

ــ الميراث الشعرى .

الفصل الرابع

١ ــ سلامة ديوان الخنساء

فى حديثنا عن « عصر الخنساء » عرضنا لقضية الشك فى الشعر الجاهلى بعامة ، على قدر ما اتسع له المجال المحدود فى بحث كهذا لم نقصد به إلى التفرغ لدراسة دعوى الانتحال ، وإنما هى إلمامة يسيرة أحوجنا إليها درسُنا لشاعرة من العصر الجاهلى أدركت الإسلام .

وإذا ما تركنا هذه القضية العامة جانبًا ، فإن نصيب الخنساء من اتهام شعرها ــ بخاصّة ــ قليل لا يعدو الأبياتَ تنسب إليها خطأ ، أو يُشك فى أن تكون لرائية سواها .

ذلك أن إدراكها الإسلام وهى ذائعة الشهرة بعيدة الصيت ، قد جعل شعرها يتردد على ألسنة الرواة إلى قريب من عصر التدوين . وكان المُسْلِمون يعتزون بها ، شاعرّة قبيلة ، ويباهون بالموروث من مجدها الأدبى . وقد أدرك ابن أختها « أشجع السلمى » القرن الثانى للهجرة فكان مرجعًا للمحفوظ من شعرها ، ولذلك جُمع فى عصر مبكر ، وشرحه عدد من مشهورى العلماء كابن السكّيت وابن الأعرابى والثعالبى ، وحفظت شروحهم مع نسختين للديوان كتبهما العاصمى والكرمانى فى الربع الأول من القرن الثالث الهجرى ، وجمعا معًا سنة ٦٢٠ هـ فى نسخة خطية ، اقتنتها دار الكتب المصرية . وهى النسخة التى اتخذت أصلا (لأنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء) الذى نشره الآباء اليسوعيون فى بيروت ١٨٨٨ ، وطبع مرة أخرى بعناية الأب لويس شيخو ١٨٩٥ . وعليها اعتمد « دى كوبييه » فى الترجمة الفرنسية التى نشرت فى بيروت سنة ١٨٨٩ ، كما اتخذها « كرنكوف » مرجعاً عند ما كتب مادة « الخنساء » فى (دائرة المعارف الإسلامية) .

وتوجد نسخ خطية من « ديوان الخنساء » فى مكتبات : برلين ، وليدن ، وبطرسبرج ، تجد أرقامها فى (بروكلمان ١/١٦٥) .

* * *

وقد اطمأن « كرنكوف » قبلنا إلى سلامة شعر الخنساء نسبيًّا من عبث النحل ، وذكر من أسباب ذلك أن ديوانها رُوى فى زمن مبكر ، عن رجال من قبيلتها ، فضلا عن طابع العصر الذى لا نخطئه فى شعرها . قال :

« ومن الطبيعى أن نجد قصائد كثيرة نُحلت للخنساء لاستفاضة شهرتها بإجادة الرثاء . ومع ذلك فلسنا نشك فى أصالة قصائد أخرى ، وبخاصة لأن القصائد التى لا شبهة فى نسبتها إليها ، رويت عن رجال من قبيلتها وجمعت منهم فى زمن جِدّ مبكر . ومما له دلالته أننا نجد فى القصائد غير المنحولة ، التعبير عن المشاعر الصادقة للجاهلية »[1] .

وهى بعينها الأسباب التى ذكرها « السيد فؤاد أفرام البستانى » فى مقدمة (الروائع) دون إشارة إلى الدائرة !

قال بعد الحديث عما لم يسلم منه ديوان الخنساء من الدخيل :

« بيد أن ديوانها على علاته ، يظهر من أسلم الشعر الجاهلى من النحل وأقربه إلى الصحة ، لما عرفنا من اعتناء بنى سليم به من عهد بعيد ، ومن استناد جامعيه إلى أهل الخنساء أنفسهم . أضف إلى ذلك الصفات الجاهلية البارزة فى أكثر قصائدها ، والدالة على جاهلية شعرها »[2] .

وقد أستطيع أن أضيف إلى هذا فى تعليل سلامة الديوان ، أن « الخنساء » لم يكن لها دور معروف فى معترك الأحزاب السياسية ، ولا كان لها اتصال واضح بصراع الأهواء العصبية والمذهبية التى تُذكر أولّ ما تذكر دواعى الانتحال ، ومن هنا ظل شعرها بمنجاة عن العبث والاتهام ، على قدر ما تحتمله ظروف البيئة والرواية النقلية .

---

(١) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة : الخنساء .

(٢) « الروائع » العدد ٣٨ المقدمة ص : ك .

٢ – الترتيب الزمنى لشعر الخنساء

وقصائد الخنساء ، فى النسخ المطبوعة من ديوانها ، مرتبة على حروف الهجاء للقوافى . وهو ترتيب إن سهّل الرجوع إلى الديوان ، فليس بحيث يعين على دراسة شعر الخنساء ، والانتفاع به فى فهم شخصيتها ودرْس شاعريتها .

والسيد « فؤاد أفرام البستانى » رتب مختاراته بحسب الأشخاص الذين قيلت فيهم القصائد ، فبدأ بأربع مراث للخنساء فى شقيقها معاوية ، ثم أتبعها بمختارات من مراثيها فى صخر دون إشارة إلى الترتيب الزمنى . ثم جعل القسم الثالث لقصائد شتّى : وصف أبيها ، رثاء زوجها مرداس ، قصيدة فى التشكّى والفخر بقومها .

وسأحاول هنا ، فى عرضنا للنماذج المختارة من شعرها ، أن آتى بها مرتبة ترتيبًا زمنيًّا قدر المستطاع ، وهو ما أغفله جامعو الديوان وناشروه ، على ماله من أهمية وخطر .

* * *

وليس لدينا مع الأسف ، من الوسائل ما يعين على هذا التحديد الزمنى فى الديوان كله ، وإنما أقصى جهدنا أن نستقرئ أخبار الخنساء وشعرها معًا ، التماسًا لشعاع من الضوء يهدى إلى زمن القصيدة على وجه التقريب ، فنظفر بهذا الشعاع الهادى مرة ، ونفتقده مرات . لكن قصور المحاولة لا يحول دون الاجتهاد فيها ، تاركين لمن بعدنا إتمامها بما يُرجى أن يكشف عنه الغد من جديد فى هذا الميدان .

ولا ينتظرْ قارئٌ منى أن أحدد للقصيدة تاريخًا بعينه . فذلك مالا أجرؤ عليه ولا أستطيعه ، وإنّما تتجه محاولتى إلى ترتيب القصائد المختارة ، على

ما أطمئن إليه فى كرنها قيلت فى وقت مبكر أو متأخر من حياة الخنساء .

وإذ كان موت صخر هو الحدث البارز فى حياة الشاعرة كما قال « ابن سلام » ومن تبعه من مؤرخى الأدب العربى ، فإنى أوثر ضبطاً للتحديد الزمنى الذى تتجه إليه محاولتى ، أن أدير التقسيم فى نطاق مرن ، تتميز فيه ثلاثة أدوار من حياة الخنساء :

الدور الأول : شعرها منذ ظهرت فى الأفق الأدبى . إلى مصرع شقيقها معاوية .

والثانى : من مصرع معاوية . إلى موت صخر .

والثالث : ما بعد وفاة صخر .

* * *

الدور الأول :

ونختار منه خمس قصائد :

الأولى ، عند ما خطبها « دريد بن الصمة » فردّته .

وهى مقطوعة قصيرة ، عدد أبياتها فى (الديوان) ستة[1] ، وقد جاء منها صاحب (الأغانى)[2] بأبيات ثلاثة فقط :

أتخطبنى ، هُبلتَ . على «دريد» وقد أطردت سيدَ آل بدرِ ؟
معاذ الله ينكحنى حَبَرْكى يقال أبوهُ من جُشَمِ بنِ بكرِ
ولو أمسيتُ فى جُشَمٍ هَدِيًّا لقد أمسيتُ فى دنس وفقرِ

وليس فى الأبيات ما يلفت ، إلا أن تكون على قصرها شاهدة بموهبة مواتية فى فجر الشباب . وهى بعد تلقى ضوءاً على شخصية الفتاة ، بهذا الأسلوب الذى تخاطب به أباها — أو أخاها — فى ردٍّ خاطب لا ترضاه ، كما يشير البيت الأول . إلى أن « تماضر » قد خُطبت قبل ذلك لسيد آل بدر .

---

(١) « أنيس الجلساء » ص ٤٤ . وبين روايتها ورواية الأغانى خلاف يسير .

(٢) « الأغانى » ١٠ ص ٢١ — دار الكتب . وأطردت : أمرت بطرده . والحبركى ، بفتحتين فسكون : الضعيف الرجلين كأنه مقعد لضعفهما ، والطويل الظهر القصير الرجلين . والهدى : العروس .

والقصيدة الثانية ، رائية قالتها مفاخرة بأخيها الشقيق « معاوية » ، وإنما رجحنا وضعها فى هذا الدور المبكر ، لأنها لا تحمل أثرًا لنعى ، ولا تشير إلى مصرع الأخ ، وإنما تشيد ببأسه فى الحرب . فضلا عن دلالتها الصريحة ، على غضبة الخنساء لتجاهل القوم أخاها ، وما كانت لتغضب أو تلوم ، لو أنه كان إذ ذاك راقدًا تحت الثرى .

ويبدو أن حادثًا ما ألمّ ببعض القوم ، فدعوا له شخصًا اسمه « عامر » ولم يدعوا « معاوية » ، فقالت أخته لائمة مفاخرة :

دعوتُمْ « عامرًا » فنبـذتموهُ ... ولم تَدْعوا « معاويةَ بْنَ عمرو »
ولو نادَيْتَهُ لأتاكَ يسْعَى ... حثيثَ الركضِ أو لأتاك يجرى
مُدِلاً حين تشتجرُ العَوالى ... ويدركُ وِتْرَهُ فى كل وتْرِ

والقصيدة فيما نرى ، ليست تجربة مبتدئة لشاعرة لم تقل قبل موت صخر إلا البيت أو البيتين .

وقصيدة ثالثة ، بائية من بحر الطويل . نرجح أنها قيلت فى هذا الدور ، إذ لا يبدو أنها رثائية ، وإنما هى حماسية مادحة ، يلفتنا فيها إلى جانب فخامة العبارة وجزالة اللفظ ، حيوية الحركة ، وبراعة التصوير لبعض مشاهد البادية ، وكثرة الالتفات الدال على تمكن واقتدار :

وخرق كأنضاءِ القميص دوّية ... مخوف رَدَاه ، ما يقيم به ركبُ[1]
قطعتُ بمجْذام الرّواح كأنّها ... إذا حُطَّ عنها كُورُها ، جَمَلٌ صَعْبُ[2]
يعاتبُها فى بعض ما أذنبَتْ له ... فيضربُها حينًا ، وليس لها ذنبُ[3]
وقد جعلتْ فى نفسها أن تخافَهُ ... وليس لها منهُ سَلامٌ ولا حربُ
فطرتَ بها حتى إذا اشتدَّ ظِمؤها ... وحُبَّ إلى القوم الإناخةُ والشَّرْبُ
أنختَ إلى مظلومةٍ غيرِ مَسْكنٍ ... حواملُها عوجٌ وأفنانُها رَطْبُ[4]

---

(١) الدوية : القفر . (٢) المجذام : المقطاع أى الناقة السريعة التى تقطع الفيافى .
(٣) الحديث هنا عن مهر وناقته ، يعاتبها ولا ذنب لها أن كانت طاقتها دون قوته .
(٤) المظلومة : هنا بمعنى الشجرة . حواملها : غيدانها .

فناط إليهـا سـيفَه ورداءه وجاء إلى أفياء ما علّق الركبُ
فأغفَى قليلاً ، ثم طار برحلهـا ليكسب مجداً أو يجوز لها نَهْبُ
فثارت تبارى أعْوجيًّا مُصدّرًا طويلَ عِذار الخدّ جؤجؤه رحبُ[1]

والرابعة : رائيتها[2] فى وصف سباق بين أبيها عمرو وأخيها صخر ، قيلت ولا ريب قبل أن تُستحن الأسرة بفقد زين شبابها .

ويروون فى سبب نظمها ، أن الخنساء قيل لها يومًا وهى تملأ عينيها من أبيها وأخيها : لئن مدحتِ أخاك لقد هجوتِ أباك . فانبعثت تقول :

جارَى أباهُ فأقبـلا وهُما يتعـاوَران مُلاءةَ الفَخْرِ
حتى إذا نَزَعَت القلوبُ وقد لزَّتْ هناك العذرَ بالعذر[3]
وعلا هُتافُ الناس : أيهما ؟ قال المجيب هناك : لا أدرى !
برزتْ صحيفةُ وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أوْلَى فأولى أن يسـاويَه لولا جلالُ السنّ والكبْر !
وهمـا كأنهمـا وقد برزا صقْران قد حَطّا على وَكْر !

والقصيدة رائعة . تتدفق حيوية ، وتصور مشهدَ السباق تصويرًا بالغ الدقّة والجمال ، وتسجّل الحركة ، واللفتة ، والوثبة ، والصيحة ، كما تسجل الانفعال النفسى لمتتبع السباق وهو لا يدرى أى الرجلين يسبق صاحبه . ولا يهون على ناقد أن يعد هذه الرائعة ، تجربة مبتدأة ، وفيها هذا كله ، وفيها معه ، هذا التلاؤم بين الوزن — بحر الكامل — ونغم القافية ، وبين حركة الجرى والركض فى السباق ؛ وفيها كذلك ، تلك البراعة اللبقة ، فى التخلص من المأزق الحرج ، إذ السباق بين أبى الشاعرة وأخيها ، وهى بكليهما معتزة مباهية .

---

(١) الأعوجى : نسبة إلى أعوج وهو فحل كان لكندة فصار إلى بنى سليم فإلى بنى هلال ثم تفرق نسله فى العرب . والمصدر : المقدم الذى له الصدارة . والجؤجؤ : اللبة .

(٢) « أنيس الجلساء » : ٤٣ .

(٣) لزت : التصقت . والعذر : جمع عذار وهو ما انحدر من اللجام على وجه الفرس . والتصاق العذر ، فى مثل هذا الموقف ، يكون عن محاذاة الفارسين وتقاربهما فى السباق .

ومن عجب أن القصيدة على روعتها . لم تلفت أنظارَ الدارسين فى عصرنا ، على أنها ظفرت من الأقدمين بشهادة ما أظن أن قصيدة أخرى ظفرت بمثلها . إذ يروون أن « أبا عبيدة » سئل عنها : لمَ لمْ تُرْوَ فى المجموع من شعر الخنساء . فأجاب : « العامةُ أسقطُ من أن يجاد عليها بمثل ذلك ! »

أما المحدثون فما عناهم إلا أن يشيروا إلى ما ذكر الرواة والنقاد من أخذ الشعراء لهذا المعنى أو ذاك من قصيدة الخنساء . وقد أشار (أنيس الجلساء) إلى كل هذا ، نقلا عن « الأصمعى » فيما أرجح [١] .

فلنذكر هذا حين يُهدر الاعتراف بشاعرية الخنساء قبل وفاة « صخر » ويُحصر مجالها الفنى فى الرثاء وحده .

وثمت قصيدة خامسة مختارة من هذا الدور المبكر . قالتها « الخنساء » فى رثاء زوجها « مرداس السلمى » [٢] ورجحنا أن يكون ذلك قبل فجيعتها المزدوجة بفقد أخويها . على ما أشرنا إليه فى حديثنا عن حياة تماضر :

ولما رأيتُ البدرَ أظلم كاسفًا ... أرنّ شواذٌ بطنُه وسوائلُه [٣]
رزينًا وما يغنى الرزينُ وقد أتى ... بموتك من نحو القُرَيَّة حاملُه [٤]
وفضّل « مرداساً » على الناس حلمه ... وأنْ كلُّ هم هَمَّه فهوَ فاعلهْ
وأنْ كلَّ وادٍ يكره الناسُ هبطَه ... هبطتَ وماء منهل أنت ناهلُه
تركتَ به ليلاً طويلاً ومنزلاً ... تعادى على ظهر الطريق عواملهْ
متى ما توازنْ ماجداً تعتدلْ به ... كما عَدَلَ الميزانَ بالكفِّ راطلُه [٥]

وتبدو فى هذه القصيدة . ملامحُ مبكرة من مراثى « الخنساء » التى سوف

---

(١) فى كتاب « فحوله الشعراء » ص ٦٢ ط المنيرية . وانظر (المرأة فى الشعر الجاهلى) ص ٥١٢ .

(٢) « أنيس الجلساء » : ٧٧ .

(٣) ويروى : « شوان » وهو جبل قرب مكة .

(٤) القرية : من أشهر قرى اليمامة . ويروى : « بنعشك » بدلا من « بموتك » .

(٥) ويروى : « ثاقله » أى وازنه .

تلقانا بعد . ومنها نستجلى شعاعًا من الضوء ، نعرف به الجانب المهدّر من حياة تماضر ، وأعنى به ما ليس متصلا بأخيها صخر .

فلعلنا لا ننسى هذا حين نذكر قولة الأقدمين : « وكانت تقول البيت والبيتين حتى مات شقيقها معاوية ثم أخوها صخر » (١) .

الدور الثانى :

ويمكن أن نضع هنا مراثيها فى شقيقها « معاوية » وحده ، وما يتصل به من حض على الثأر له ، ومدح فيمن أعان على هذا الثأر . وإذا كنا لا نستبعد ونعلم أن الخنساء عادت فرثت معاوية مع صخر بعد موته ، وقد تضاعف حزنها بفجيعتها المزدوجة . إلا أننا نختار هنا من مراثيها ما نرجح أنه خاص بمعاوية وحده مقصور عليه ، مما يغلب أن تكون قد قالته قبل مصابها فى صخر .

وإنما أفردنا هذا الشعر بدور خاص ، ولم نضمه إلى ما قبله أو إلى ما تلاه ، لأن « الخنساء » بدأت فى هذه الفترة بالذات ، تتخصص فى الرثاء ، وتتميز بسمات خاصة يحسن أن نتبينها هنا قبل أن نمضى إلى ما نسميه "الدور الصخرى" الذى استأثر بعناية الأقدمين حتى حصروا أو كادوا يحصرون فيه حياة « تماضر » وشعر « الخنساء » .

وفى الديوان من شعر هذا الدور أربع قصائد لم يختلف الرواة فى كونها قيلت فى « معاوية » . وقصيدتان أخريان قالوا عن إحداهما إنها فى « صخر » أو فى « معاوية » . وقالوا عن الثانية إنها فى « صخر » ، على حين رجحنا أنهما فى معاوية — بشاهد من النص نفسه سوف نشير إليه قريبًا .

وقصيدة سابعة كذلك ، نميل إلى عدها من مراثيها فى « معاوية » وإن كان اسم « صخر » فيها . وأخرى لم يشر الديوان إلى اسم من قيلت فيه ، ورجحنا أن

---

(١) الاستيعاب : ١٨٢٧/٤ .

تكون فى « معاوية » بشاهدٍ من النص . ومرثية بائية ، ذكر « البحترى » أنها فى معاوية[١] .

ويضاف إلى هذه جميعًا أبيات ثلاثة قالتها فى مدح « قيس بن الأمرار الجشمى » حين صرع قاتل أخيها الشقيق .

ونحاول ترتيب قصائد هذا الدور زمنيًّا ، فنبدأ بقصيدة[٢] لامية من المتقارب ، يبدو أنها قالتها حين بلغها مقتل « معاوية » . وهذه القصيدة هى التى اختلفوا فيها : أهى فى معاوية أم فى صخر ؟ ورجحنا القول الأول ، لقولها فى أحد أبيات القصيدة : * فإن تك « مُرَّةُ » أودت به *

وذلك هو معاوية ، الذى قتله « هاشم بن حرملة المرّى » أما صخر ، فمات بطعنة من « ربيعة الفقعسى »[٣] . ثم أيد هذا الترجيحَ عندنا ، أنها تتحدث فى بعض أبياتها عن "الصبر وما فيه من سرور" حديثَ مؤمّلةٍ فيه بل ساعية إليه ، وما عَهِدنا « الخنساء » فى مراثيها لصخر تلتمس عزاء أو تبغى صبرًا .

ولعل الذين ذهبوا إلى أن هذه القصيدة قيلت فى « صخر » ، تأثروا بما فيها من حزن صادق لا يهتم بمن يهلك بعده ، وتمجيد حارّ لبطولة الفقيد ، وهذان مما يستأثر بهما « صخر » عادة . لكنا نميل إلى القول بأن « الخنساء » كانت منفعلة هنا بفجيعتها الأولى فى شقيقها ، وقد بكته فارسًا شهماً ، وخيل إليها فى غمرة أساها أنها لن تأسى على هالك بعده ، ولن تسأل باكية : مالها ؟ لكن الأيام أخلفت ظنها ، وسخرت بقَسَمِها . وجعلتها تبكى على هالكٍ بعد معاوية . . .

---

(١) الحماسة : ٤٢٨ .

(٢) « أنيس الجلساء » : ٧٢ .

(٣) الأغانى : ١٣١١/٣ ساسى . وقد أراد مؤلف (الخنساء فى مرآة عصرها) أن يبطل استنتاجنا هذا ، ليجعل القصيدة من مراثيها فى صخر ، وملأ صفحات فى تبرئة « ربيعة الفقعسى الأسدى » من دم صخر ، مؤكداً أن قاتليه حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريان . ولا نقول فى ذلك إلا ماقاله ابن حزم فى (جمهرة أنساب العرب ١٨٥) : « ومن بنى فقعس ، ربيعة بن ثعلبة – ويكنى أبا ثور – قاتل صخر بن عمرو السلمى » .

وأبيات القصيدة ، واحد وثلاثون بيتاً ، وهى تعد بذلك من طويلات الخنساء ، ولعلها أطول قصيدة قالتها حتى ذاك العهد .

والقصيدة قوية ، فيها الجزع الصادق الذى تشعر معه بأن الكون قد أظلم والكواكب قد أفلَتْ . وفيها كذلك بوادر الطابع الذى سوف يغلب على « الخنساء » فى مراثيها بعد ، وهو استهلال المرثية بالبكاء ، ثم الالتفات السريع من البكاء والحزن ، إلى الإشادة بمناقب الفقيد :

ألا ما لعينـــكِ أمْ ما لَهَا ... لقد أخْضَلَ الدمعُ سِرْبالَهَا !
أبَعْدَ «ابْنِ عمرو» من آل الشريـ ... ـد حلَّتْ به الأرضُ أثقالَهَا ؟
فآليت آسى على هالكٍ ... وأسألُ باكيةً ، ما لَهَا ؟
. . . . . .
سأحمـــل نفسى على آلة ... فإمَّا عليها وإمَّا لَهَـــا
فإن تصبر النفسُ تلق السرورَ ... وإن تجزع النفسُ أشـــقَ لَهَا
نهين النفوسَ وهوْنُ النفو ... س يومَ الكريهـــة أبْقَى لها
ونعـــلم أنّ منـــايا الرجا ... ل بالغـــةٌ حيث يحلى لها
لتجْرِ المنيَّـــةُ بعد الفتى ... المغـــادَرِ بالمَحْوِ أذيالَهَا[1]
فإن تلك « مرةُ » أودت به ... فقـــد كان يُكثِر نقتالها
فخرّ الشوامخُ من قتـــاه ... وزلزلت الأرضُ زلزالَهـــا

وثانية القصائد : سينية لها مقيدة من مجزوء الكامل ، أبياتها اثنا عشر ، جاءت فى الديوان رثاءً لصخر . لكنا رجحنا — بشاهد من النص كذلك — أنها فى رثاء « معاوية » إذ تقول عنه " ابن أمى " وذاك هو معاوية الشقيق ، أما « صخر » فأخوها لأب [2] .

---

(١) المحو : موضع . انظره مع الشاهد فى (بلدان ياقوت ٧ / ٤٠٠) ط السعادة بالقاهرة
(٢) الاستيعاب : ٤ / ١٨٢٧ — وفى كتاب (الخنساء فى مرآة عصرها — ص ٢٣٣) مناقشة لما كتبت هنا ، يرى فيها المؤلف أن صخرا أخ شقيق ، دون أن يتفضل فيشير إلى مرجع ينقض هذا الذائع المشهور . وعنده أن ترجيحنا رثاءها لمعاوية ، بالقصائد التى فيها : ابن أمى ، يرد عليه أن كون صخر أخاها لأبيها يفتقر إلى دليل ! وأنها فى مراثيها لصخر تقول : لهف أمى . . . ونقول : أى دليل يطلبه إلا أن نشبت مصادر مادتنا ؟ وفرق عندنا بعيد ، بين «ابن امى» و «لهف أمى» !

وتستهل القصيدة بحث العين على البكاء ، وهى كما سنرى سمة سوف تغلب على مراثيها . ثم تنتقل مسرعة ، بعد بيت واحد ، بل بعد شطر واحد أحياناً ، إلى وصف الليث المهاب ، غيث العشيرة وحامى الكتيبة :

يا عينُ ابكى فارساً حَسَّنَ الطِّعان على الفَرَسْ
ذا مِرّةٍ ومَهابةٍ بَيْنا نؤمِّلُه اختُلِسْ

. . . . . .

نِعْمَ الفتى عند الوغى حين التَّصايُح فى الغَلَسْ
فلأبكينَّك سيداً فَصلَ الخطاب إذا التَبَسْ
من ذا يقومُ مقامهُ بعد ابن أمى إذْ رُمِسْ
غيث العشيرةِ كلِّها : الغائرينَ ومن جَلَسْ[1]

وثمتَ قصيدة رائية ، أبياتها خمسة وعشرون ، من البسيط ، تبدأ بذكر « صخر » ، لكنا نميل إلى عدها من مراثى الخنساء فى شقيقها « معاوية » لقولها : ابن أمى . وغير مستبعد عندنا أن يكون البيت الأول منها قد أضيف إليها عن خطأ أو تزيد . وإذ ذكرتْ فيه الخنساء اسم « صخر» فقد عدّ الرواة القصيدة من مراثيها فيه ، مع أنهم الذين قرروا أن صخراً ليس ابن أمها . ثم إنها ترثى هنا قتيلا فى معركة قد تخلى عنه فيها من معه ، وذلك هو « معاوية ».

والقصيدة تعبر عن حزن مر ، وتحض على الثأر للقتيل :

يا عينُ فيضى بدمعٍ منك مغْزارِ وابكى لصخر بدمع منك مدْرار
إنى أرِقْتُ فبتُّ الليلَ ساهرةً كأنّما كُحلتْ عينى بعُوّار
أرْعَى النّجومَ وما كُلِّفْتُ رِعْيَتَها وتارةً أتغشّى فَضْلَ أطمارى[2]
وقد سمعتُ ـ فلم أبهجْ به خَبَرًا مخبِّرًا قام ينمى رجْعَ أخبار
قال ابنُ أمك ثاوٍ بالضّريحِ وقد سدّوا عليه بألواحٍ وأحجارِ

---

(١) « أنيس الجلساء » ٣٣ ، وتقصد بالغائرين هنا غير المقيمين ، من غار إذا أتى الغور ، ويقال فى الرجل الجواب : غار وأنجد .

(٢) أطمارى : جمع طمر وهو الثوب الخلق ، إشارة إلى أنها لا تلبس الجديد حزناً وحداداً .

فاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ من رجلٍ منَّاعِ ضيمٍ وطلاّبٍ بأوتار

. . . .

أبكى فتى الحيِّ نالتْـــه منيَّتُه وكلّ نفسٍ إلى وقتٍ ومقدار
وسوف أبكيكَ ما ناحتْ مطـــوَّقةٌ وما أضاءتْ نجومُ الليلِ للسَّارى
ولا أسالم قومًا كنت حَرْبَهُمُ حتَّى تعودَ بياضًا جُونَةُ القار
أبلغ سُلَيْمًا وعَوْفًا إنْ لقيتهمُ عميمةٌ من نداءٍ غـــير إسْرارِ[1]
أعْنى الذين إليهم كان منزلُه هل تعرفون ذِمامَ الضيف والجارِ
لو منكمُ كان فينا لم يُنَلْ أبدًا حتى تُلاقَى أمـــورٌ ذاتُ آثارِ
لا نومَ حتى تقودوا الخيـــلَ عابسةً ينبذْنَ طَرْحًا بمُهْرات وأمْهارِ
أو ترحضوا عنكمُ عارًا تجلَّاكم رحضَ العوارك حَيْضًا عند أطهار
كأنَّهمْ يومَ رامُـــوهُ بأجمعهمْ راموا الشَّكيمةَ من ذى لِبْدة ضارِ
حامى العرين لدى الهيجاء مضطلعٌ يفرى الرجالَ بأنيابٍ وأظفارِ

ورابعة القصائد ، يائية مقيدة من بحر الطويل أبياتها سبعة ، نحس فيها الانفعال الحزين ، ويهز وجداننا رنينها المثير الذى تجعله الهاء الساكنة ، شبيهًا بالنواح ؛ كما يهزنا تكرار بعض المقاطع فى إيقاع بالغ الإثارة :

ألا لا أرَى فى النَّاس مثل «معاويه» إذا طرقتْ إحدى الليالى بداهيَهْ
بداهيـــةٍ يصغى الكلابَ حسيسُها وتخرج من سرِّ النجىِّ علانيـــهْ
ألا لا أرَى كالفارسِ الوَرْدِ فارسًا إذا ما علته جرأةٌ وغلانيه[2]
وكان لِزازَ الحرب عنـــد شُبُوبها إذا شمَّرتْ عن ساقِها وهْىَ ذاكيهْ
بلينا وما تبلى «تِعارٌ» وما تُرَى على حدَثِ الأيامِ إلا كما هيَهْ[3]
فأقسمْتُ لا ينفكّ دمعى وعَوْلَتى عليك بحزنٍ ما دعا اللهَ داعيَهْ[4]

---

(١) أى رسالة عامة واضحة لا سر فيها .
(٢) الغلانية : الغلو فى الجرأة .
(٣) تعار : جبل — انظره فى بلدان ياقوت : ٢ / ٣٦٤ ط الخانجى .
(٤) «أنيس الجلساء» : ٨٩ .

ونضع بعدها : ميمية مقيدة من مجزوء الكامل أيضًا ، قصيرة النفَس ، أبياتها ستة فحسب ، تستهل كسابقتها بخطاب العين فى شىء من التكلف — فى البيت الثانى — ثم تنثنى فتعدد مناقب الفقيد وسجاياه على النحو الذى سوف يتكرر فيما بعد :

يا عينُ جودى بالدُّمو ... ع المستهلات السَّواجمْ
فيضًا كما انْخرقَ الجُما ... نُ وجالَ فى سلْك النَّواظمْ
وابكى « معاويةَ » الفتى ... وابْن الخضارمةِ القماقمْ
والحازمَ البانى العُلا ... فى الشَّاهقات من الدَّعائمْ
تلقى الجزيلَ عطاءَه ... عند الحقائق غيرَ نادمْ

كما نضع مرثيتها البائية :

يا عين مالك لا تبكين تسكابا ... إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريابا

وقد نصّ « البحترى » فى حماسته ، على كونها رثاء فى معاوية .

* * *

وإذ هى فى حزنها وأساها ، يبلغها أن أحد بنى جُشَم ، قوم دريد بن الصمة ، قتل غريمها « هاشم بن حرملة المرى » ثأرًا لمعاوية . وكان « هاشم » قد خرج غازيًا . فلما كان بديار بنى جشم ، رآه « قيس بن الأمرار الجشمى » فقال : « هذا قاتل معاوية ، لا والت نفسى من والاه » .

ثم مضى على أثره يترصد خطاه ، حتى جاء من خلفه فضربه بسيفه ضربة قاضية . وذاع النبأ حتى بلغ دور « بنى سليم » وأرهف الجمع آذانهم يتسمعون ما تقول « الخنساء » تحية لهذا الصديق وابتهاجًا بمقتل هاشم .

وقالت الخنساء[1]:

فدًى للفارسِ الجُشَمِىِّ نفسى ... وأفديه بمن لى من حميمِ
وأفديه بكل بنى سُلَيْمٍ ... بظاعنهِمْ وبالأنَسِ المقيم

(١) « أنيس الجلساء » : ٨٠ .

أفدّيه كما أقررتَ عيني وكانت لا تنامُ ولا تُنيم
خصصتُ بها أخا الأمرار «قيسًا» فتى في بيت مكرمةٍ كريم [١]

ثم لم تزد . . .

وعصيت شاعريتها فلم تجدْ بغير هذه الأبيات الثقيلة على السمع ، الشبيهة بنظم المناسبات ، بما يغلب عليها من تكلف ، وغلو ، ومعاظلة ، وتكرار ، مع ما يعيبها من إقواء .

* * *

على أن « الخنساء » لم يُرضها من الثأر قتلُ « هاشم » . كما لم يرضها من قبل ما بلغ أخوها « صخر » من بني مرة . بل هبت بعد مقتل هاشم ، تحرض قومها على مزيد من الثأر ، في قصيدة لا تخلو من تكلف وتكرار ، ولا تعبر عن حزن صادق ، ولا تثير شجوًا ومشاركة وجدانية . وإنما هي لفتة سريعة إلى الخسارة المادة بقتل « معاوية » ، ودعوة إلى الإلحاح في الخصومة ، بغيةَ مزيدٍ من الفوائد يعوض الخسارة في الفقيد [٢] :

لا شيءَ يبقى غير وجهِ مليكنا ولستُ أرى شيئًا على الدهر خالدا [٣]
ألا إنّ يوم « ابن الشّريد » ورَهْطه أبادَ جِفانًا والقدورَ الرَّواكدا
هم يملئونَ لليتيمِ إناءَهُ وهم ينجزونَ للخليلِ المواعدا
. . . . . .
ونحن قتلنا « هاشمًا » وابنَ أخته ولا صُلحَ حتى نستفيد الخرائدا [٤]
فقد جرّبَتِ العاداتُ أنّا لدى الوغى سنظفرُ والإنسانُ يبغي الفوائدا

ولها في « معاوية » دالية أخرى من البسيط ، أبياتها تسعة ، بدليل قولها :

---

(١) رفعت كلمة كريم على أنها صفة لفتى ، ويلاحظ أن القافية في البيتين الأخيرين مضمومة في حين أنها مكسورة في البيتين الأولين ، وهو إقواء .

(٢) « أنيس الجلساء » : ١٧ .

(٣) ويروى : « ولست أرى حياً . . . »

(٤) ويروى : ونحن قتلنا مالكاً وابن أخته ولا سلم حتى يشتفين عوائدا

عينيَّ جـــودا بدمع منكما جودا جودا ولا تعدا فى اليـــوم موعودا
هل تدريان على من ذا سبلتكما على ابن أمى أبيت الليل معمودا

* * *

وندع هذا الدور وقد خرجنا منه :

بأن الخنساء قالت من الشعر قبل موت « صخر » مراثى ذات عدد ، تكفى للرد على من حددوا ظهور شاعريتها بموت صخر .

وأن سمات مراثيها وضحت فى هذا الدور ، وسنراها تتكرر وتزداد جلاء فيما يلى من مراث .

* * *

الدور الثالث :

وهو الدور الذى استأثر كما قلنا باهتمام مؤرخى الأدب حتى أهدر بعضهم كل ما عداه .

وإذا كنت قد حرصت على عرض نماذج من شعر « الخنساء » قبل الدور الصخرى لأصحح به خطأ القول بأنها لم تقل الشعر إلا راثية لصخر ، فإنى أعود هنا فألتمس لقائليه كل العذر ، إذ أجد الخنساء قد جاوزت فى إعلان الحزن على أخيها أقصى المدى ، ورثته بقصائد تكفى وحدها لأن تكون ديوان شاعرة .

وفى الحق أن شعراء المراثى فى العربية جِدٌّ كِثار ، وأن رثاء الإخوة يكاد يظفر بالمكان الأول فى ديوان الرثاء العربى ، وبحسبى أن أذكر هنا أن شعراء الرثاء المقدمين عند « ابن سلام » رثوا إخوتهم ، وأن « مهلهلا » رثى أخاه كليبا ، كما رثى « لبيد بن ربيعة » أخاه « أربد » ، وبين الراثيات العشر اللواتى اختار لهن « البحترى » فى حماسته ، ثمانى شاعرات رثين الإخوة ! وبين الشواعر اللواتى ذُيِّل ديوان الخنساء بمختارات من مراثيهن ، نحو عشرين شاعرة رثت أخاها . لكنا مع ذلك ، لا نعرف أحدًا من كل هؤلاء ، ظفر بعدد من المراثى كتلك التى ظفر بها « صخر » من أخته « الخنساء » .

ومن هنا يبدو عذرُ الذين لم يعرفوا « الخنساء » إلا راثيةً لصخر .

ومهما نتخلص نحن من تلك الفكرة المسيطرة ، ونذكر للخنساء شعرها فى غير « صخر » ، فلن نستطيع بحال ما أن ننكر أن رثاءها لأخيها قد استغرق أكثر ديوانها ، وأنها بذلك قد وجّهت النقاد القدامى ، ابتداء ، إلى فكرة تحديد المجال الفنى للشاعرة العربية بالرثاء .

على أنا مع ذلك ، نجد لها — حتى فى هذا الدور — قصائد لم ينفرد بها « صخر » وحده ، وإنما قاسمه إياها الشقيق « معاوية » .

ولكى نستطيع أن نحدد السمات الخاصة للخنساء فى الرثاء الذى هو الفن الغالب عليها ، نبدأ أول الأمر بترتيب مراثيها ، زمنيًّا فى هذا الدور حتى يتيسر لنا أن نتتبع تلك السمات فى مراحلَ تميزها . وإذا كانت محاولتنا مثل هذا الترتيب الزمنى قد اكتنفها شىء من الصعوبة فى الدورين الأول والثانى ، فالأمر هنا أصعب وأشق ، إذ القصائد كلها فى الرثاء ، والكثرة الغالبة منها فى « صخر » ، مما يعز معه أن نحدد أيتهن سبقت الأخريات .

غير أنا رغم ذلك مضينا فى المحاولة ، وكان شعر الخنساء ، فى ضوء ما نعرف من حياتها ، هو المرجع والدليل ، فاستطعنا أن نميز قصائد هذا الدور فى مجموعات ثلاث :

أولاها ، نسمع فيها صوت النعى ، ونلمح أثر الصدمة القريبة والحزن الجديد . وهذه جميعًا فى « صخر » وحده ، إذ ليس من الطبيعى أن تشغل « الخنساء » عقب مصرع أخيها الأعز ، برثاء أحد سواه .

وتتلو هذه القصائد ، مراثيها المشتركة فى الأخوين معًا . بعد أن أجهدها البكاء على « صخر » وحده ، واستنفد طاقتها على رثائه منفردًا ، فانثنت تتحدث عن الفجيعة المزدوجة فى أخويها ، لعلها تجد مجالاً جديد من القول .

ثم تعود إلى « صخر » وقد ذاعت مراثيها فيه وحزنها عليه ، تستحث عينيها على أن تبكياه ، وتجهد شاعريتها لتجود بمزيد من رثائه .

وهذه هى النماذج المختارة من كل مجموعة ، مرتبة على هاتيك المراحل الثلاث المتعاقبة ، وإنا لنرجو أن تعين هذه المحاولة على جلاء الخصائص الفنية لمراثى الخنساء المبكرة والمتأخرة ، وأن تساعد على وزن شاعريتها ونقدها .

* * *

(١) وأول ما يلقانا من مراثى الخنساء فى صخر ، تلك التى قالتها والمناحة قائمة . وفيها تقف نادبة معولة ، تواتيها شاعريتها بروائع مثيرة ، لا نشك فى أنها قيلت عقب مصرع «صخر» وصوت الناعى يقرع الآذان ، فتكذب سمعها حينًا حتى إذا عم النبأ الفاجع ، وقفت نائحة ملتاعة ، تبكى الجمال والفروسية والندى ، وترى العيشَ من بعده لا خير فيه [١]:

أبِنْتُ صخرٍ تلكم الباكيَهْ ... لا باكيَ الليلةَ إلاّ هيَهْ
أوْدَى « أبو حسّانَ » واحسَرْتا ... وكان « صخرٌ » ملكَ العاليهْ
ويلايَ ما أُرحم ويلاً ليه ... إذ رَفعَ الصوتَ الندىَّ الناعيهْ
كذّبتُ بالحقّ وقد رابنى ... حتى علتْ أبياتنا الواعيهْ
بالسيّدِ الحلو الأمينِ الذى ... يَعْصِمُنا فى السَّنَةِ العاديهْ
لا خيرَ فى عيش وإن سرّنا ... والدّهْرُ لا تَبْقَى له باقيهْ
كلُّ امرئٍ سُرَّ به أهْلُهُ ... سوف يُرى يومًا على ناحيهْ

ورائية لها أبياتها خمسة وعشرون[٢]، قالتها لما جاءها خبر هلكه ، فيها اللهفة الحارة والحزن المستثار ، والشاعرية المرهفة تستجيب لدفع الوجدان بهذا الوزن « السريع » والرنين المقيَّد ، فكأنها صرخات قلب مقطع ممزق ، وأناتُ صدر متصدع الأنفاس ، ولهاث لوعة باتت تبارحها تقدح فى قلبها شجًا من شرار النار :

يا عينُ جودى بالدموع الغزارْ ... وابْكى على أرْوَعَ حامى الذّمارْ[٢]:
أقولُ لما جاءنى هلكه ... وصرح الناسُ بنجوَى السرارْ

(١) « أنيس الجلساء » : ٩٠
(٢) » » : ٣٨ .

أُخَيَّ إمَّا تكُ وَدَّعْتَنا ... وحالَ من دونك بُعْدُ المَزارْ
فرُبَّ عرفٍ كنتَ أسْدَيْتَه ... إلى عيـــالٍ ويتامى صِغارْ
ورُبَّ نعمى منك أنعمتَهـــا ... على عُناةٍ غُلَّقٍ فى الإسَـــارْ
أهلى فـــداءٌ للَّذى غودرتْ ... أعْظمُهُ تامعُ بين الخُبارْ[1]
من كان يومًا باكيًا سيِّدًا ... فليبكه بالعَبَرات الحِـــرارْ
ولْتَبْكه الخيلُ إذا غودرتْ ... بساحة الموتِ غـــداةَ العثارْ
وليبكه كلُّ أخى كُـــرْبةٍ ... ضاقتْ عليه ساحةُ المستجارْ

. . . . . .

قُلْ للذى أضحى به شامتًا ، ... إنَّكَ والموتَ معًا فى شعارْ[2]
هَوَنْ وَجْدى أن من ســـرَّهُ ... مَصْرَعُه ، لاحقُه لا تُمارْ[3]
وإنَّمـــا بينهما رَوْحَـــةٌ ... فى إثْرِ غادٍ سارَ حتَّ النهارْ
حلفـــتُ بالبيـــتِ وزوَّارِه ... إذْ يُعملونَ العِيسَ نحوَ الجمارْ[4]
لا أجزعُ الدَّهرَ على هالكٍ ... بعدكَ ما حنَّتْ هَوادى العشارْ
يا لوعةً باتتْ تبـــاريحهـــا ... تقدَحُ فى قلبى شجًا كالشرارْ

أبْدَى لىَ الجَفْوَةَ من بَعْدِه ... من كان من ذى رَحِم أو جوارْ

ويخرجها الحزن عن طورها ، فتتمنى لو أطبقت السماء على الأرض وهلك الناس جميعًا فما يعنيها بعد « صخر » أحد[5] :

ألا ليتَ أمِّى لم تلدْنى سويَّةً ... وكنتُ تُرابًا بين أيدى القوابِلِ
وخَرَّتْ على الأرض السماءُ فطبَّقَتْ ... وماتَ جميعًا كلُّ حافٍ وناعلِ
غداةَ غدا ناعٍ لصخْرٍ فراعنى ... وأوْرَثنى حزنًا طويلَ البلابلِ
فقلتُ له : ماذا تقولُ ؟ فقال لى ... نَعَى ما ابنَ عمرٍو أثكلته هوابلى

---

(١) الخبار : الأرض الرخوة ذات الحجارة . (٢) الشعار : ما يلى الجلد من الثياب .
(٣) لا تمار : لا تجادل وهو مجزوم بلا الناهية على حذف حرف العلة، وسكن للشعر .
(٤) أعمل العيس : ساقها . الجمار : جمع جمرة وهى الحصى يرميها الحجاج فى وادى « منى »
(٥) « أنيس الجلساء » : ٦٨ .

فأصبحتُ لا ألتذُّ بعدكَ نعمةً ... حَيَاتى ولا أبكى لدعوةِ ثاكلِ
فشأن المنايا بالأقارب بعدَهُ ... لتعللْ عليهم علةً بعد ناهل

وتسودّ الدنيا فى وجهها ، ويلوح لها الكون أغبر ، قد كسفت شمسه واضطرب قمره ، وتحس كأن كل مَن فيه يبكى معها ! (١)

يا عـينُ جودِى بالدُّمو ... عِ على الفتى القَرْمِ الأغرْ
. . . . . .
والشَّمسُ كاسـفةٌ لمَهْـ ... ـلكه وما اتَّسقَ القمرْ
والإنْسُ تبـكى وُلَّهـاً ... والجنُّ تُسـعد من سَحَرْ
والوحشُ تبكى شـجْوَها ... لمَّا أتى عنـه الخبرْ
المدْرَهُ الفيَّـاضُ يَحْـ ... ـمِلُ عن عشيرته الكُبَرْ
يُعْطِى الجـزيلَ ولا يمـ ... ـنُّ وليس شيمتُه العسَرْ
ويَـلى عليـه ويلةً ... أصبحتُ حصْـنى منكسرْ

وما أحسبنا نضيق بهذا الغلو أو نرى فيه تكلفاً ، فمثل « الخنساء » فى مصابها جديرة بأن تحس خراب الكون من بعد « صخر » ، وتشعر بأن الدنيا تشاركها الحزن عليه .

وكذلك تبدو على حالها من الجزع المسرف ، فى قصيدة لها حائية مقيدة ، أبياتها عشرون ، من مجزوء الكامل كذلك (٢) ، والمناحة لا تزال قائمة ، والنوادب ينحن على الفقيد :

يا عـينُ جودى بالدُّمو ... عِ المستهلاَّت السَّـوافحْ
فيضـًا كما فاضتْ غـرو ... بُ المُتْرَعاتِ من النَّواضحْ
وابكى لصـخرٍ إذْ ثوى ... بين الضَّريحةِ والصَّفـائحْ
. . . . . .
الحـاملُ الثِّقْـلَ المهـ ... ـمَّ من الملمَّات الفـوادحْ

(١) « أنيس الجلساء » : ٣٦ .
(٢) الصفائح : الحجارة العريضة .

الجابرُ العظمَ الكسيـ ـرَ من المهاصِرِ والمماتحْ
فأصابَنا رَيْبُ الزما ن فنالَنا منه بناطحْ
فكأنَّما أمَّ الزَّما نُ نُحُورَنا بمُدَى الذَّبائح[1]
فنساؤنا يندُبْنَ نَوْ حاً بعد هادية النوائحْ

يندبنَ فَقْدَ أخي النَّدى والخيرِ والشِّيَمِ الصَّوالحْ
والجودِ والأيدى الطِّوا لِ المستفيضاتِ السَّوامحْ
فالآنَ نحنُ ومَنْ سوا نا مثلُ أسْنانِ القوارحْ

ومن قصائدها المختارة فى هذه الفترة كذلك ، لامية [2] مقيدة من السريع ، وأبياتها خمسة عشر ، ووائية [3] مقيدة أيضًا ، من مجزوء الرمل ، أبياتها تسعة عشر وهائية [4] مردفة ، من الوافر ، أبياتها واحد وعشرون ، نرى الخنساء فيها لا تزال تئن من أثر اللطمة ، وتترنح تحت وطأة المصاب ، وتنوح على فقيدها نواحًا يثير أعمق الشجن :

ياعينُ جودى بالدُّموع السجولْ وابكى على صخرٍ بدمع همولْ[5]
لا تخذليني عندَ جَدِّ البُكا فليس ذا ياعينُ وقتَ الخُذولْ
ابْكى «أباحسَّانَ» واسْتَعْبرى على الجميلِ المستضافِ المخِلْ
نِعْمَ أخو الشَّتْوةِ حلَّتْ به أرامِلُ الحَيِّ غداةَ البَليلْ[6]
يأتيهُ مستعصماتٍ به يُعْلِنَّ فى الدارِ بدعوى الأليلْ[7]
ونعمَ جارُ القومِ فى أزمةٍ إذا التجا الناسُ بجارٍ ذليلْ
لا يحبسُ الخيرَ على نفسِه بل عنده من جاءَه فى فضول

---

(١) أم : قصد . المدى : جمع مدية وهى الشفرة .
(٢) « الديوان » : ٦٩ .
(٣) « الديوان » : ٥٩ .
(٤) « الديوان » : ٨٦ .
(٥) السجول : التى تصب سجلا بعد سجل .
(٦) البليل : الريح الباردة .
(٧) الأليل : الموجع المريض .

وتقول فى القائية :

مَرِهَتْ عينى فعينى بعد صخر عَطِفَهْ
فدموعُ العينِ منّى فوق خدّى وكِفَهْ
إنّ نفسى بعد صخر بالرَّدَى معترفَه
وبها من صخر شيء ليس يحكى بالصّفَهْ !

وبنفسى لَهُمومٌ فهى حرَّى أسِفَهْ
وبذكرى صخرِ نفسى كلّ يوم كَلِفَهْ
إنّ صخراً كان حِصْناً وربًى للنَّطِفَهْ
وغياثاً وربيعاً للعجوزِ الخرِفَهْ
وإذا هبّتْ شمالٌ أو جَنوبٌ عَصِفَهْ
نَحَرَ الكُومَ الصّفايا والبِكارَ الخلِفَهْ

وتقول فى هائيتها — وقد غنى « ابن جامع » ببعض أبياتها أحد الأصوات المئة المختارة — تصور جزعها وجزع بنى عمرو على الفقيد، تصويراً مؤثراً، فشيوخهم قد بلّ الدمع لحاهم ، والخنساء تسألهم عمن تركوا هنالك وحيداً فى الثرى :

بكت عينى وعاوَدَها قذاها بعُوَّارٍ فما تقضى كَرَاها
على صخرٍ وأىُّ فتًى كصخرٍ إذا ما النّابُ لم ترأمْ طَلاَها(١)
لئنْ جزعتْ بنو عمرٍو عليه لقد رُزِئتْ بنو عمرو فتاها
له كفٌّ يشدُّ بها وكفٌّ تَحلَّبُ ما يجفُّ ثرى نداها
تَرَى الشُّمَّ الجحاجِحِ مِن سُلَيمٍ يبلُّ نَدَى مدامعها لحاها(٢)
. . . . . .
فلم أملكْ غداةَ نعىَّ صخرٍ سوابقَ عَبْرةٍ حُلِبَتْ صَراها(٣)

(١) الناب : الناقة المسنة . لم ترأم : لم تعطف . الطلى : الولد .
(٢) الشم الجحاجح : الأشراف أولو المنزلة الرفيعة . واللحى : جمع لحية .
(٣) صرى الدمع : اجتمع ولم يجر .

أمطعمتكم وحاملكم تركتم ... لدى غبراء منهدم رجاها
ليبك عليك قومك للمعالى ... وللهيجاء إنك ما فتاها
وقد فقدتك «طلقة» فاستراحت ... فليتَ الخيلَ فارسها يراها[1]

* * *

وتهدأ المناحة قليلاً وينفض المأتم ، فنرى الخنساء — والعهد بصخر جدُّ قريب — تعكف على مراثيها مجوِّدة ، فتدع القصائد ذات الوزن السريع والقافية المقيدة ، وهما من أكثر الأوزان والقوافى ملاءمة للنواح ، إلى القوافى المنطلقة والبحور الطويلة ، وتلقانا بتلك القصائد المشهورات التى طالما أعجبت النقاد من قديم ، لفرط ما بلغت فيها «الخنساء» من تجويد الصنعة وإحكامها .

وهذه القصائد فى جملتها قوية البناء ، تفيض باللوعة الصادقة والانفعال الوجدانى المثير ، لا يئودها تكلف ولا يثقلها استكراه ، فهى فى إحداها تصور لنا حالها إذ بلغها النعى المشئوم ، فكادت نفسها من الحزن تتبعه وهى لا تكاد تتصور كيف تستطاع الحياة من غير صخر[2]:

لقد صوّتَ النّاعى بفقد أخى الندَى ... نداءً لعمرى ، لا أبا لكَ ، يُسْمَعُ
فقمتُ وقد كادتْ ، لروْعة هُلْكه ... وفَزْعته ، نفسى من الحزنِ تَتْبَعُ
إليه كأنّى ، حوبةً وتخشعًا ، ... أخو الخمرِ يسمو تارةً ثم يُصْرَعُ
فمَنْ لِقِرَى الأضياف بعدك إن هُمُ ... قُبالكَ حلّوا ثم نادَوْا فاسْمَعوا
كعهد هِمُ إذْ أنتَ حىٌّ وإذ لهُمْ ... لديكَ منالاتٌ وريٌّ ومَشْبَعُ
ومن لهمٌ حلَّ بالجارِ فادح ... وأمرٍ وهَى من صاحب ليس يُرْقَعُ
ومَنْ لجليسٍ مُفْحَشٍ لجليسه ... عليه بجهلٍ جاهداً يتسرَّعُ
ولو كنتَ حيًّا كان إطفاءُ جهله ... بحلْمك فى رِفْقٍ ، وحلْمُك أوسَعُ
وكنتُ إذا ما خِفْتُ إرداف عُسْرَةٍ ... أظلُّ لها من خيفة أتقنَّعُ
دعوتُ لها صخرَ النّدَى فوجدته ... له موسرٌ يُنفَى به العُسْرُ أجمعُ

---

(١) طلقة : اسم فرس لصخر ، والبيت من مختارات «قدامة بن جعفر» فى صحة المعنى .
(٢) «أنيس الجلساء» ٥٤ .

وفى رائية لها ، أبياتها سبعة عشر ، من بحر الطويل ، تسترجع المشهد الفاجع لمسيرها وراء النعش تسأل الذين مشوا به ماذا يحملون إلى القبر[١] :

أعينى هلاَّ تبكيانِ على صخرِ ... بدمع حثيث لا بكىءٍ ولا نَزْرِ
وتستفرغانِ الدَّمْعَ أو تذْرِيَانِهِ ... على ذى النَّدَى والجودِ والسيِّدِ الغَمْرِ[٢]
فشأنُ المنايا إذ أصابك رَيْبُهـا ... لتَغْدُ على الفتيانِ بعـدك أو تسرِ
فمَنْ يضمنُ المعروفَ فى صلبِ ماله ... ضمانَك أو يَقْرِى الضيوفَ كما تقرى؟

. . . . . .

وقائلة ، والنَّعْشُ قد فات خَطْوهَا ... لتدركَهُ : يا لهفَ نفسى على صخرِ
ألا ثكلتْ أمُّ الذين غدَوْا به ... إلى القبرِ ، ماذا يحملونَ إلى القبرِ
وماذا يُوارِى القبرُ تحتَ تُرابِهِ ... من الخيرِ ، يا بؤسَ الحوادثِ والدهرِ!

ولعلها قالت فى تلك الفترة أيضًا رائيتها التى أنشدتها « النابغة الذبيانى » فى سوق عكاظ[٣] :

قذًى بعينكَ أمْ بالعينِ عُـوَّارُ ... أمْ ذرَّفتْ إذ خلتْ من أهلها الدَّارُ
كأن عينى لذكراه إذا خطَرَت ... فيضٌ يسيلُ على الخدَّين مدرارُ
تبكى لصخرٍ هى العَبْرَى وقد ولِهَتْ ... وَدونَهُ من جديد الترْبِ أستارُ
تبكى « خناسُ » فما تنفكُّ ما عمَرَتْ ... لها عليه رنين وهْىَ مِفْتـارُ
تبكى «خناسُ »على«صخرٍ» وحقَّ لها ... إذ رابَها الدهرُ إنَّ الدهرَ ضرَّارُ

. . . . . .

وإن صخرًا لَوالينـا وسيِّدُنا ... وإنَّ صخرًا إذا نشتو لنحَّـارُ
وإنَّ صخرًا لمقدامٌ إذا ركبـوا ... وإنَّ صخرًا إذا جاعوا لعقَّارُ
وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهُـداةُ به ... كأنه عَـلَـمٌ فى رأسِه نارُ
جَلْدٌ ،جميلُ المحيَّا ،كاملٌ . وَرِعٌ ... وللحروبِ غداةَ الرَّوْعِ مِسعارُ

---

(١) « أنيس الجلساء » : ٢٨ .
(٢) السيد الغمر : الكريم الغامر عطاؤه .
(٣) « أنيس الجلساء » : ٢٤ .

حمّالُ ألويةٍ ، هبّـاطَ أودية ... شهّادُ أندية ، للجيش جـرّارُ

. . . . . .

قد كان خالصتى من كل ذى نسب ... فقد أصيبتُ فما للعيش أوطارُ
ليبكه مُقْتِرٌ أفنَتْ حريبتَـه ... دهرٌ ، وحالفَهُ بؤسٌ وإقتـارُ(١)
ورفقةٌ حازَ حاديهم بمهلكة ... كأنّ ظلمتهـا فى الطّخْيَة القارُ(٢)
لا يمنعُ القومُ إن سألُوهُ خلعتَهُ ... ولا يجاوزُهُ بالليـل مُرّارُ

* * *

ثم كان الهدوء الذى يعقب العاصفة ، فتخلو « الخنساء » إلى شجوها وأساها وتلقانا بمقطوعات قصار ، تجتر فيها حزنها على مهل ، وتتذوق أشجانها فى تأمل وادع ، وترنو إلى جراحها متعبة مجهدة . وهذه المجموعة من أجمل مراثيها ، وأحفلها بالعواطف الإنسانية التى تعكس صدى الإحساس العميق بمحنة الموت(٣):

ألا يا صخرُ إن أبكيت عينى ... لقد أضحكتَنى زمنًا طويلا
بكيتُك فى نســاء مُعْوِلات ... وكنتُ أحقَّ مَنْ أبْدَى عويلا
دفعتُ باكَ الجليلَ وأنتَ حىٌّ ... فمَنْ ذا يدفعُ الخطبَ الجليـلا
إذا قَبُحَ البكاء على قتيل ... رأيتُ بكاءَكَ الحسَنَ الجميلا

* * *

بنى سليمٍ ألا تبكونَ فارسَكُمْ ... خلّتى عليكم أمورًا ذاتَ أمراس(٤)
ما للمنـايا تُغادينا وتطرُقُنا ... كأنّنا أبدًا نُحتزُّ بالفـاس

* * *

تقولُ نساءٌ : شبتِ من غير كبرة ... وأيسرُ مما قد لقيتُ يشيبُ(٥)
أقُولُ : أبا حسّانَ لا العيشُ طيّبٌ ... وكيفَ وقد أفردتُ منك يطيبُ !

---

(١) الحريبة : ما يتعيش به الإنسان من مال .
(٢) الطخية : الغيم يوارى النجوم فيتحير الهادى .
(٣) « أنيس الجلساء » ٧٢ .
(٤) » » : ٤٩ .
(٥) » » : ٥ .

فتى السنّ كَهْلُ الحِلْم لا متسرّعٌ ... ولا جامدٌ جَعْدُ اليدين جديبُ
أخو الفضل لا باغٍ عليه بفَضْله ... ولا هو خَرَقٌ فى الوجوه قطيبُ
إذا ذكرَ الناسُ السماحَ من امرئٍ ... وأكرمَ أو قالَ الصّوابَ خطيبُ
ذكرتُكَ فاستعبرتُ والصّدْرُ كاظمٌ ... على غُصّةٍ منها الفؤادُ يذوبُ
لعمرى لقد أوهيتَ قلبى عن العزا ... وطأطأتُ رأسى والفؤادُ كئيبُ
لقد قُصِمَتْ منى قَناةٌ صليبةٌ ... ويُقْصَمُ عودُ النَّبْع وهو رطيبُ(١)

* * *

لَهَفْنِى على صخر فإنى أرى له ... نوافلَ من معروفه قد تولّتْ(٢)
ولهفى على صخرٍ لقد كان عصمةً ... لمولاهُ إن نعلٌ بمولاه زلّتِ
وكنتَ إذا كفٌّ أتتك عديمةً ... تُرَجّى نوالاً من سَحابك بُلّتِ
ومختنقٍ راختى «ابنُ عمرو» خناقَهُ ... وغُمّتَهُ عن وجهه فتجلّتِ
وظاعنةٍ فى الحىّ لولا عطاؤهُ ... غداةَ غدتْ من أهلها ما استقلّتِ

* * *

سقى جَدَثًا أكنافُ غمرةَ دونَهُ ... من الغيثِ ديماتُ الرّبيع ووابلُهْ
أعيرُهمُ سَمْعِى إذا ذُكِرَ الأسَى ... وفى القلبِ منه زفرةٌ ما تزايلُهْ
وكنتُ أعيرُ الدّمْع قبلَكَ من بكى ... فأنتَ على مَنْ ماتَ بعدَكَ شاغلُه(٣)

* * *

إن الزمانَ وما يفنى له عَجَبٌ ... أبقى لنا ذَنَبًا واستؤصلَ الراس(٤)
أبقى لنا كلَّ مجهول وفجّعنا ... بالحالمينَ فهمْ هامٌ وأرماسُ
إن الجديدينِ فى طولِ اختلافهما ... لا يفسدانِ ولكن يفسدُ الناسُ

* * *

(١) عود النبع : شجر تتخذ منه القسى لصلابته ، ويروى : « وهو صليب » .
(٢) « أنيس الجلساء » : ٨ .
(٣) » » : ٧٨ . والبيت فى (حماسة البحترى ٤٣٣) لليلى بنت سلمة !
(٤) » » : ٥١ — وهذه الأبيات هى التى قيل إن جريراً فضل بها الخنساء على نفسه.

ألاَ أيها الديكُ المنـادى بسحرة ... هلم كذا أخبرْكَ ما قد بد ليا[1]
بدا لىَ أنّى قد رزئتُ بفتيـة ... بقيّـة قومٍ أورثـونى المباكيا
فلمّـا سمعتُ النائحاتِ ينحْنَهُ ... تعزّيتُ واستيقنتُ أن لا أخاليا
كصخرِ بن عمرو خيرِ مَن قد علمته ... وكيف أرجّى العيش، ضلّ ضلاليا؟
وما لىَ لا أبكى منْ لو انهُ ... تقـدمَ يومى قبلهُ لبكى ليا
وإن تُمسِ فى قيسٍ وزيدٍ وعامرٍ ... وغسّانَ ، لم تسمعْ له الدهرَ لاحيا

* * *

ما لِذا الموت لا يزالُ مخيفـا ... كل يوم ينالُ منا شريفا
مولعـاً بالسراة منـا فمـا يأ ... خذُ إلاّ المهذّبَ الغطريفا
فلو انّ المنونَ تعدلُ فينـا ... فتنـالَ الشـريفَ والمشـروفا
كان فى الحقّ أن يعودَ لنا المو ... تُ وأنْ لا نسـرمَه تسـويفا
أيهـا الموتُ لو تجافيتَ عن صخ ... رٍ لألفيتَـه نقيّـا عفيفـا
عاش خمسين حِجّةً يُنْكِرُ المُنْـ ... ـكَرَ فينـا ويبـذلُ المعـروفا

* * *

ونخلص من هذه الفترة المبكرة التى أعقبت وفاة صخر بالملاحظ الآتية :

أن شعرها فى مناحة صخر ، قد غلب عليه الوزن السريع والقافية المفيدة ، وهما من أكثر الأوزان والقوافى ملاءمة للنواح .

وهى تبدو فيه مستثارة الحزن مترنحة تحت هول المصاب ، فتكاد قصائدها أن تكون ندبا وعويلا ، وإذا كانت قد كررت بعض ألفاظها أو معانيها ، أو كانت قد نزعت إلى شىء من الغلو فى الحزن أو فى ذكر مآثر الراحل ، فليس إلى الحد الذى نضيق به أو ننكره ، بل لعله أقرب إلى أن يكون أمرًا طبيعيًّا فى مثل ذاك الموقف ، من نائحة تبكى أعز فقيد ، وتعدّد مآثره .

فأما بعد أن انقضى المأتم ، فأكثر مراثيها محكمة مجوّدة ، تعقبها مقطوعات

(١) « الديوان » : ٨٩ . (٢) « الديوان » : ٥٨ .

قصار ، تندر فيها القوافى المقيدة . والوزن الغالب عليها هو الطويل أو الوافر ، مما يناسب فترة الهدوء الحزين بعد الكارثة .

وأخص ما تتميز به هذه المقطوعات ، النزعة التأملية ، ومن ثم كثرت فيها الحِكَم دون تكلف أو اصطناع . وقلما تخلو مقطوعة منها من تعبير عن وجدان مرهف ، ولوعة صادقة تثير الشجن .

* * *

(ب) أتراها إذن قد استنفدت ما يمكن أن يقال فى صخر ؟ لعلها أحست ذاك ، فالتمست مخرجًا من المجال المحدود ، وانثنت تذكر أخًا لها قتل من قبل ، وحزنت عليه يومئذ أشد الحزن ، ثم ألهاها المصاب الجديد حتى كاد ينسيها ما كان !

وهاج حزنها القديم ، وتصدع قلبها للفجيعة المزدوجة فى الأخوين الفارسين : أجمل شباب مضر ، فإذا شاعريتها تُستثار منفعلة بهذا المصاب العام للقبيلة ، وتستمد منه طاقة جديدة على التعبير المؤثر والإنشاد الحزين ، فتجود بروائع من شعرها المعبر عن الذاتية الجماعية ، نختار منها :

تعرَّقنى الدَّهرُ نهسًا وحزَّا ... وأوجعنى الدهرُ قرعًا وغمْزا[1]
وأفنَى رجالى فبادُوا معًا ... فغودِرَ قلبى بهم مُستفَزَّا
كأنْ لم يكونوا حِمًى يُتَّقَى ... إذ الناس إذ ذاكَ : من عزَّ بَزَّا[2]
وكانوا سَرَاةَ بنى مالك ... وزَيْنَ العشيرة بذْلاً وعِزَّا
وهمْ فى القديم أساةُ العديـ ... ـم والكائنون من الخوف حِرْزا
وهمْ منَعُوا جارهُمْ والنِّسا ... ء يَحْفِزُ أحشاءها الخوفُ حَفْزا

. . . . . .

غداةَ لَقُوهم بملمومةٍ ... رَدَاحٍ تغادرُ فى الأرضِ رِكْزا
ببيضِ الصفاح وسُمْرِ الرِّماحِ ... فبالبيض ضربًا وبالسمْرِ وَخْزا

---

(١) الديوان : ٤٧ – والنهس ، بالأسنان : والحز : القطع .

(٢) من عز بز : مثل ، معناه : من غلب سلب .

وخيل تكدسُ بالدّارعينَ ... وتحت العجاجة يجمزْن جَمْزَا
جزَزْنا نواصيَ فُرسانها ... وكانُوا يظنون ألاّ تُحَزَّا
ومن ظنَّ ممَّنْ يُلاقي الحروبَ ... بأنْ لا يصابَ فقد ظنَّ عَجْزَا
نعِفُّ ونعرفُ حقَّ القِرَى ... ونتَّخذُ الحمدَ ذُخْرًا وكَنْزَا
ونلبسُ في الحربِ نَسْجَ الحديدِ ... ونسحبُ في السِّلْمِ خَزًّا وقَزَّا

وقافية لها من الوافر ، أبياتها ثلاثة عشر ، قيل إنها القصيدة التي أنشدتها أميرَ المؤمنين « عمر بن الخطاب » حين لامها ، ثم ما لبث أن قال في تأثر : " دعوها ، فإنها ما تزال حزينة أبدًا " وفيها تبكي شجوها وذكريات ماضيها السعيد — على قلة ما فعلت — كما تذكر أمجاد قومها وعزهم السالف[1] :

هريقِي من دموعكِ أو أفيقِي ... وصَبْرًا إن أطقتِ ولن تُطيقِي
وقولي إنَّ خيرَ بني سُلَيْمٍ ... وفارسَهم ، بصحراءِ العقيقِ
وإنّي والبكا من بعد صخرٍ ... كسالكةٍ سوى قصدِ الطريقِ

. . . . . .

ألا هَلْ ترجعنَّ لنا الليالي ... وأيّامٌ لنا بلِوَى الشقيقِ
ألا يا لَهْفَ نفسي بعد عيشٍ ... لنا بنَدَى المحتَّم والمضيقِ
وإذ يتحاكمُ السّادات طرًّا ... إلى أبياتنا ، وذوو الحقوقِ
وإذْ فينا فوارسُ كلِّ هَيْجَا ... إذا فزعوا وفتيانُ الخروقِ
وإذ فينا « معاويةُ بن عمرٍو » ... على أدْماءَ كالجمَلِ الفنيقِ
فَبَكِّيه فقد ولّى حميدًا ... أصيلَ الرأيِ محمودَ الصَّديقِ

ولامية لها من الوافر كذلك ، أبياتها تسعة ، لا نخطئ فيها ، كما لم نخطئ في سابقتها ، المعنى الإنساني الذي قد نفتقده أحياناً في مراثيها المتأخرة[2] :

بكتْ عيني وحقَّ لها العويلُ ... وهاضَ جَناحيَ الحدثُ الجليلُ
... ...

(١) « الديوان » : ٦١ . (٢) « الديوان » : ٦٨ .

معاوية بن عمرٍو كان رُكْنِي وصخرًا كان ظلُّهمُ الظَّليلُ
ذكرتُ فغالَتَنِي ونَكا فؤادِي وأرَّق نومِيَ الحزنُ الطـويلُ

ومقطوعة يائية من الطويل ، أبياتها ستة ، من الطويل[١]:

أرَى الدَّهْرَ أفْنَى مَعْشَرِي وبَنِي أبِي فأمسيتُ عَبْرَى لا يجفُّ بُكائِيا
أيا صخرُ هل يُغْنِي البكاءُ أو الأسى على ميِّت بالقبرِ أصبحَ ثاويا
فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صخرًا وعَهْدَه ولا يُبْعِدَنَّ اللهُ رَبِّيَ مُعـاويا
سأبْكيهمـا واللهِ ما حَنَّ والِهٌ وما أثْبَتَ اللهُ الجبالَ الرَّواسِيا
سَقَى اللهُ أرضًا أصبحتْ قد حَوَتْهُما من المستهلاتِ السَّحابَ الغَوادِيا

ورووا لها أربعة أبيات ، عاظمت بها « هندَ بنتَ عتبة » فى سوق عكاظ ، بمصابها الفادح فى رجالها . والبيت الأول منها ، هو البيت الفرد اليتيم الذى رثت به « تماضر » أباها[٢]:

أبَكَّى أبى « عَمْرًا » بعينٍ غزيرةٍ قليلٌ إذا نامَ الخلِيُّ هجـودُها
وصِنْوَيَّ لا أنْسَى : معاويةَ الـذى له من سَراةِ الحرَّتَيْنِ وفودُها[٣]
وصخرًا ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا بساحته الآطال قَرْمٍ يقودُها[٤]
فذلك يا هنـدُ الرزيَّة فاعْلَمِي ونيرانُ حربٍ حين شبَّ وَقُودُها

كما رووا من مائيها المشتركة فى أخويها ، دالية أخرى من الوافر ، أبياتها سبعة[٥]:

بكتْ عينى وعاودت السهودا وبتُّ الليلَ جانحةً عميد
لذكرى معشرٍ ولَّوْا وخـلَّوْا علينـا من خِلافتهمْ فُقُـودا

---

(١) « أنيس الجلساء » : ٨٩ .
(٢) « الديوان » : ٢٢ .
(٣) الحرتان هنا ، هما : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال . وأصل الحرة الأرض ذات الحجارة السود النخرة .
(٤) الآطال : جمع إطل ، الناقة الضامرة .
(٥) « الديوان » : ١٦ .

فكم من فارسٍ لكِ أمَّ عمروٍ يحوطُ سـنانُه الأنـس الحـريدا[١]
كصخر أو معـاويةَ بن عمرو إذا كانت وجوهُ القوم سودا

* * *

(ح) ثم نفرغ وتفرغ « الخنساء » من مراثيها فى أخويها معًا ، لتعود على بدء فترثى أخاها الحبيب « صخرًا » .

وفى هذه المراثى المتأخرة ، نراها تقلد نفسها وتدور فى حلقة مفرغة ، مكررةً ألفاظًا ومعانى لها سابقة . ولا تكاد تنجو مرثية لها متأخرة ، من أثر التكلف ومعاناة النظم وإجهاد القريحة . كما يبرز المعنى المادى فى مراثيها هذه ، بعد أن جاوزت المرحلة التى كانت تترنح فيها تحت وطأة الصدمة الساحقة . وراضها الزمن على أن تسيغ مرارة الشجن ، واستهلك طاقة شاعريتها على العطاء :

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مسكوبِ كلؤلؤٍ جالَ فى الأسماط مثقوبِ[٢]
إنى تذكَّرْتُهُ والليـلُ معتكرٌ فى فؤادىَ صدعٌ غيرُ مشعوبِ
نِعْمَ الفتَى كانَ للأضيافِ إذْ نزلُوا وسائلٍ حَلَّ بعد النومِ محروبِ

* * *

أهاجَ لكِ الدموعَ على ابنِ عمروٍ مصائبُ قد رزئتِ بها فجُودى[٣]
بسَجْلٍ منكِ منحـدرٍ عليه فما ينفكُّ مثلَ عِدَا الفـريدِ[٤]
على فرعٍ رزئتِ به خنـاسٌ طويلِ الباعِ فيَّاضٍ حميـدِ
جليـدٍ كان خـيرَ بنى سُلَيْمٍ كريمهم المسـوَّدِ والمسـودِ

. . . . . .

---

(١) الحريد : المنفرد وأم عمرو ، فى البيت ، هى جدة الخنساء وأخويها لأبيهم ، وفى (العقد الفريد) أن الخنساء كانت تكنى أم عمرو وقد يرجع هذا أن ولدها البكر : أبا شجرة بن عبد العزى ، اسمه عمرو .

(٢) « أنيس الجلساء » : ٥ .

(٣) « « : ١٩ .

(٤) كذا فى الديوان . ولعله : « مثل عرا الفريد » جمع عروة . قال ذو الرمة :
كأن عرا المرجان منها تعلقت على أم خشف من ظباء المشاقر

فلا يبعـدْ أبو حسّانَ صَخْرٌ وحَلَّ برمْسه طيرُ السعُـودِ !

* * *

يا ابْنَ الشَّريدِ وخيرَ قيسٍ كلّها خلّفْتَنى فى حسرةٍ وتبلُّدِ[1]
فلأبكينّك ما سمعـتُ حمـامةً تدعو هديلاً فى فرُوعِ الفرقدِ ![2]
قد كنتَ حِصْنًا للعشيرة كلّهـا وخطيبَها عنـد الهُمامِ الأصْيَدِ !
فاذهبْ ولا تبعِـدْ وكلُّ معمَّرٍ سيذوق كأسَ منيَّةٍ بتنكُّدِ !

* * *

يا عين جودى بدمعٍ غير منزورِ مثلِ الجُمانِ على الخدَّيْنِ محدُورِ[3]
وابْكى أخًا كان محموداً شمـائلُه مثل الهلالِ منيرًا غيرَ مغمورِ
وفارسَ الخيلِ وافتـهُ منيَّتُه فى فؤادِىَ صَدْعٌ غيرُ مجبـورِ
نِعْمَ الفتى كنتَ إذ حنَّتْ مرفرفةٌ هوجُ الرِّياحِ حنينَ الوُلَّهِ الحُورِ
والخيـلُ تعثُرُ بالأبطـالِ عابسةً مثلِ السَّراحين من كابٍ ومعقورِ

* * *

أعينىَّ جُودا بالدُّموعِ على صخرٍ على البَطَلِ المقدامِ والسيِّدِ الغَمْرِ
لِيَبْكِ عليهِ منْ سليمٍ جماعةٌ فقد كان بسَّامًا ومحتضرَ القِدْرِ[4]

* * *

يا عينُ بكّى بدمعٍ غيرِ إنزافِ وابكى لصخرٍ فلن يكفيكِه كافِ[5]
كُونِى كورقاءَ فى أفنـانِ غيلتِها أو صائحٍ فى فروعِ النخلِ هتَّافِ
وابكى على عارضٍ بالوَدْقِ محتفلٍ إذا تهاونتِ الأحسابُ رجَّافِ[6]
ومنْزلِ الضَّيفِ إنْ هبَّتْ مجلجلةٌ تَرمى بصُمٍّ سريعِ الخسْفِ رسَّافِ

---

(١) «أنيس الجلساء» : ٢١ .
(٢) وروى : « الغرقد » وهو نبات كالعوسج .
(٣) «أنيس الجلساء» : ٨٣ .
(٤) « « : ٥ محتضر القدر : كناية عن كثرة ضيوفه .
(٥) « « : ٥٨ .
(٦) الودق : القطر .

يالَهْفَ نفسي على صخرٍ وقد لَهِفَتْ ... وهل يَرُدَّنَّ خَبْلَ القلب تلهيفي (١)
ابْكي أخاكِ إذا جاورتِهِمْ سَحَرًا ... جودي عليه بدمعٍ غير منزوف
ابْكي المُهينَ تِلادَ المال إنْ نزلتْ ... شهباءُ تَرْزَحُ بالقومِ المتاريفِ (٢)

* * *

يا عينُ جُودي بدمعٍ منكِ مُهْراق ... إذا هَدَى الناسُ أو هَمُّوا بإطراق (٣)
إني تذكرني صَخْرًا إذا سجَعَتْ ... على الغصونِ هَتوفٌ ذاتُ أطواقِ
وكلُّ عَبْرَى تبيتُ الليلَ ساهرةً ... تبكي بُكاءَ حزينِ القلب مشتاق
لا تكذبنَّ فإنَّ الموتَ مُحْتَرِمٌ ... كلَّ البريَّةِ إلا الواحدَ الباقي
أنتَ الفتى الماجدُ الحامي حقيقتَهُ ... تُعطي الجزيلَ بوجهٍ منكَ مِشْراق
إني سأبكي أبا حسَّانَ نادبةً ... ما زلتُ في كلِّ إمساءٍ وإشراقِ

* * *

أمِنْ ذكرِ صخرٍ دمعُ عينكِ يَسْجُمُ ... بدمعٍ حثيثٍ كالجُمانِ المنظَّمِ (٤)
فتًى كان فينا لم يرَ الناسُ مثلهُ ... كَفالاً لأمٍّ أو وكيلاً لمحْرَمِ
كأنَّ بُغاةَ الخيرِ عندكَ أصبحوا ... على نَهجٍ من طافحِ البحرِ خِضْرِمِ
إذا ذكرتْ نفسي نَداهُ وبأسَهُ ... تحسَّرَ عنها كلُّ عيشٍ وأنعُمِ

* * *

ألا ما لعينكَ لا تَهْجَعُ ... تُبَكِّي لوَ أنَّ البُكا ينفعُ (٥)
كأنَّ جُمانًا هوى مُرْسلاً ... دموعُهما أو هُما أسْرَعُ
تحدَّرَ وانْبَتَّ منه النظا ... مُ فانْسَلَّ من سِلْكه أجْمَعُ

---

(١) «أنيس الجلساء» ٥٩ .
(٢) المتاريف : تعني بهم ذوي الترف .
(٣) «أنيس الجلساء» : ٦٣ .
(٤) » » : ٨٢ .
(٥) » » : ٥٤ .

٣ ـ سمات مراثى الخنساء

(ا) الاستهلال بالبكاء ثم تعداد مناقب الفقيد :

وإذا كانت سمات مراثى الخنساء قد اتضحت من العهد الأول ، وغلب عليها أن تستهل بالبكاء ثم تسرع إلى تعداد مناقب الفقيد ، فإننا فى مراثيها المتأخرة نستطيع أن نميز قاموسها الخاص فى الألفاظ والعبارات ، وأن نحدد المعانى التى تدير عليها رثاءها ، على ضوء ما نعرف من مكرراتها .

(ب) التكرار :

وأعرض هنا نماذج من مطالع قصائدها تبين إلى أى حد تشابهت كثيرات منها وتكررت ، حتى ما تكاد تختلف بأكثر من لفظ يستبدل بآخر ، تسوية لصنعة النظم أو خضوعاً لحكم القافية .

أعينىَّ هلاّ تبكيانِ على صخرٍ ... بدمعٍ حثيثٍ لا بكىء ولا نَزْرِ

ألا يا عينُ فانهملى بغُدرٍ ... وفيضى فيضة من غير نَزْرِ

أعينىّ فيضى ولا تبخلى ... فإنَّكِ للدَّمْع لم تبذلى

وجودى بدمعك واستعبرى ... كسحِّ الخليجِ على الجدولِ

أيا عينىَّ ويحَكما استَهِلاّ ... بدمعٍ غيرِ منزورِ ، وعُلاّ

عيىَّ جُودا بدمعٍ غيرِ منزورِ ... وأعْوِلا إنّ صخرًا خيرُ مقبورِ

يا عينُ جودى بدمع غيرِ منزورِ ... مثل الجُمان على الخدّين محدورِ

أمنْ حَدَثِ الأيامِ عينك تهملُ ... تبكّى على صخرٍ وفى الدهرِ مذهلُ

أمن ذكرِ صخرٍ دمع عينك يسجمُ ... بدمعٍ حثيثٍ كالجُمان المنظَّمِ

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مسكوبِ كلؤلؤٍ جال فى الأسماطِ مثقوبِ

يا عينُ مالك لا تبكينَ تَسْكابا إذْ رابَ دهرٌ وكان الدهر ريَّابا

يا عينُ فيضى بدمعٍ منك مغزارِ وابكى لصخرٍ بدمع منك مدرارِ

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مدرارِ جهد العويلِ كماءِ الجدول الجارى

ألا يا عينُ فانهمرى وقلَّتْ لمرزئةٍ أُصِبتُ بها تولَّتْ
ألا يا عينُ ويحك أسْعدينى فقد عظمت مصيبتُه وجلَّتْ

ألا يا عينُ ويحك أسعدينى لرَيْب الدهر والزمن العَضُوض
ولا تبقى دموعًا بعد صخرٍ فقد كُلِّفتِ دهرَك أن تفيضى

يا عينُ جودى بالدُّمو ع المستهلاّت السَّوافحْ
فيضًا كما فاضتْ غرو بُ المترعَاتِ من النَّواضحْ

يا عينُ جودى بالدُّمو ع فقد جفَتْ عنك المراودْ

يا عينُ جودى بالدُّمو عِ على الفتى القَرْم الأغرّْ

يا عينُ جودى بالدُّموع الغزارْ وابكى على أرْوَعَ حامى الذمارْ

يا عينُ جودى بدمعٍ منك تهمالِ وعبرةٍ بنحيبٍ بعد إعوالِ
لا تسأمى أن تجودى غيرَ خاذلةٍ فيضًا كفيضِ غروبٍ ذاتِ أو شالِ

يا عينُ جودى بالدُّموع السَّجولْ وابكى على صخرٍ بدمعٍ هَمولْ
لا تخذلينى عند جَدّ البكا فليس ذا يا عينُ وقتَ الخذول

يا عينُ جودى بدمعٍ منك مُهْراقِ إذا هدى الناس أو همُّوا بإطراق

ما بالُ عينك منها الدمعُ مهراقُ سحًّا فلا عازبٌ عنها ولا راقِ

يا عينُ بكّى على صخرٍ لأشجـانِ وهاجسٍ فى ضمير القلبِ خزّانِ

يا عينُ بكى بدمعٍ غير إنزاف وابكى لصخر فلن يكفيكِه كافِ

ابكى أخاك إذا جاورتهم سَحَرًا جُودى عليـه بدمعٍ غير منزوف

أعينىَّ جـودا ولا تجمـدا ألا تبكيان لصخـر النَّـدَى

أعينىَّ جودا بالدُّموع على صخر على البَطَل المقدام والسَّيد الغمْر

عينىَّ جُودا بدمع منكمـا جُودا جودا ولا تَعِدا فى اليوم موعودا

قَذَّى بعينك أم بالعـين عُوّارُ أم ذرَّفَتْ مذ خلتْ من أهلها الدَّارُ

بكتْ عـينى وعـاوَدَها قَذاها بعوّارٍ فمـا تقضى كـراهـا

ما بال عينك منهـا دمعهـا سَرِبُ أراعَها حزَنٌ أم عادَها طربُ !

ألا مـا لعينـك لا تهجَـعُ تبكى لو أنَّ البُـكا ينفـعُ
كأنَّ جُمـانا هـوى مرسَلا دموعُهمـا أو همـا أسْـرَعُ

* * *

وأضيف إليها بعض نماذج أخرى لهذا التكرار فى غير المطالع :

حمّـال ألـويةٍ قطاع أوديةٍ شـهّاد أنديةٍ للوِتْرِ طلّابا

جـوّاب أوديةٍ حمّال ألويةٍ سَمْح اليدين جواد غير مقتـار

حمّـال ألوية هبّـاط أودية شهاد أنـديةٍ للجيش جـرّارُ

شهّاد أندية حمّال ألوية قطّاع أودية سرحانُ قبعانُ

طويل النّجاد رفيع العما دِ ساد عشيرته أمْردا

طويل النجاد رفيع العما دِ ليس بوغدٍ ولا زُمَّل

تركتنى وسْطَ بنى عمّتى أدورُ فيهم كاللّعين النّقيلْ

تركتنى يا صخرُ فى فتيةٍ كأنّنى بعدك فيهم نَقيلْ

أبكى لصخر إذا ناحتْ مطوّقةٌ حمامة شجرها ورقاءُ بالوادى

كونى كورقاءَ فى أفنانِ غيلتها أو صائح فى فُروع النخل هتّافِ

لأبكينّك ما ناحت مطوّقةٌ وما سريت مع السّارى على ساقِ

إنى تُذكّرنى صخرًا إذا سجعتْ على الغصون هتوفٌ ذاتُ أطواقِ

فلأبكينك ما سمعت حمامة تدعو هَديلاً فى فروع الغرْقدِ

وسوف أبكيكَ ما ناحتْ مطوّقةٌ وما أضاءت نجومُ الليل للسّارى

* * *

(ح) معانيها تدور غالبًا حول الخسارة العامة للقبيلة ، وتصور المثل الأعلى للفارس العربى :

فإذا تركنا الألفاظ ونظرنا فى معانى الخنساء الراثية ، وجدناها كذلك تتكرر دائرة ، غالبًا ، حول الجواد الفارس الشجاع ، والخسرة على حامى العشيرة ، ومأوى الأرامل واليتامى ، ومقصد الضيفان ، معبرة بذلك عن ذاتية جماعية ومصورةً المثل الأعلى لفروسية العربى :

فابكى أخاك لأيتامٍ وأرملة وابكى أخاك إذا جاورت أجنابا

وابكى أخاك لخيلٍ كالقطا عُصبًا فقدنَ لمّا ثوى سَيْبًا وأنهابا

وابكى أخاك ولا تنسَىْ شمائلَهُ ... وابكى أخاك شُجاعًا غير خوَّارِ
وابكى أخـــاك لأيتـــامٍ وأرملةٍ ... وابكى أخاك لحقّ الضَّيف والجار

فابكى أخاك لأيتام أضرّ بهم ... ريبُ الزَّمان وكلّ الضرّ يغشانى
وابكى المعمّم زين القائدين إذا ... كان الرماح لديهم خلج أشطانِ

ابكى أخاك إذا جاورتهم سَحَرًا ... جودى عليه بدمع غير منزوفِ
ابكى المهين تِلاد المال إن نزلت ... شـــهباءُ ترزح بالقـــوم المتاريفِ

وابكى لصخرٍ طوالَ الدهر وانتحبى ... حتّى تَحلُّىَ ضريحًا بين أجبـــالِ
وابكيه للطَّارِقِ المنتـــابِ نائله ... وفى الحقيقـــة والإعطـــاء للمـــالِ

ومُنْزِلِ الضيف إن هبَّت مجلجلةٌ ... ترمى بصمٍّ سريع الخسف رسَّافِ
أبى اليتامى إذا ما شتوةٌ نزلتْ ... وفى المزاحف ثَبْتٌ غير وجَّافِ

وابكى أخًا كان محمودًا شمائله ... مثل الهلال منيرًا غـــير مغمورِ
وفارس الخيـــل وافتـــه منيَّتـــه ... فى فؤادى صَدْعٌ غـــير مجبورِ

ابكى أبا حسَّانَ واسْـــتَعْبِرى ... على الجميلِ المستضافِ المُخيلْ
نعْمَ أخو الشتوة حلَّت به ... أرامـــلُ الحىّ غـــداةَ البليلْ
ونعم جارُ القـــومِ فى أزمـــةٍ ... إذا التجـــا الناس بجارٍ ذليـــلْ

على صخر الأغرّ أبى اليتـــامى ... ويحمل كلّ مَعْشَرة وكَلاّ

نعمَ الفتى كان للأضياف إن نزلُوا ... وسائلٍ حلّ بعد النوم مكروبِ

فمن لقِرى الأضياف بعدك إن همُ ... قُبالَكَ حَلُّوا ، ثم نادوا فأسمعوا
كعهدهم إذ أنت حىٌّ وإذ لهمْ ... لديك منـــالاتٌ وريٌّ ومشبعُ

والمشبع القوم إن هبّتْ مصرصرة نكباءُ مُغبَرّة هبّت بصرّادِ

ومطعم القوم شحماً عند مَسغَبهم وفى الجدوبِ كريم الجدّ قيسار

حامى الحقيقة والمجير إذا ما خيف حدُّ نوائب الدهر
قد كان مأوى كلِّ أرملة ومقيلَ عثرةِ كلِّ ذى عُذر
تلقى عيالَهمُ نوافلُه فتصيب ذا الميسورِ والعُسْرِ

يا صخرُ مَنْ للخيلِ إذْ رُدّت فوارسُها عجالا
ويلى عليك إذا تهبّ م الريح باردةً شمالا
خير البريّة فى قرى صخر وأكرمهم فعالا

مَنْ لضيف يَحُلُّ بالحىّ عان بعد صخرٍ إذا دعاه صياحا
وعليه أرامل الحىّ والسَّفْـ ـرُ ومعترّهم به قد ألاحا
وعطايا يهزّها بسماحٍ وطِماح لمن أراد طماحا

مأوى الأراملِ والأيتامِ إن سغبوا شهّاد أنديةٍ مطعام ضيفانِ
حلف النّدى وعَقيد المجدِ أىّ فتًى كالليث فى الحرب لا نِكْسٌ ولا وانِ

يا صخرُ من لطراد الخيل إذْ وزعت وللمطايا إذا يشددن بالكورِ
وليتامى والأضيافِ إن طرقوا أبياتنا لفعَال منك مخبورِ
ومن لكربة عان فى الوثاقِ ومن يعطى الجزيلَ على عُسْرٍ وميسورِ

حامى الحقيق تخالُه عند الوغى أسداً ببيشةَ كاشرَ الأنيابِ
ضخم الدسيعة بالندى متدفقاً مأوى اليتيم وغاية المنتابِ

على ماجدٍ ضخم الدّسيعة بارعٍ له سَوْرة فى قومه ما تُحوَّلُ

مأوى الضريك ومـــأوى كل أرملة عند المحول إذا ما هبَّت القُـــرُرِ

يا فارسَ الخيل إذ شدّتْ رحائلها ومطعم الجُوَّعِ الهاكى إذا سغبوا
كم من ضرائكَ هُلاّكٍ وأرملـــة حلُّوا لديك فزالت عنهم الكُرَبُ
ســـقيًا لقبرك من قبر ولا برحتْ جـــودُ الرواعـــد تسقيه وتحتلبُ
ماذا تضمَّن من جودٍ ومن كرمٍ ومن خلائقَ ما فيهن مقتضبُ

ألا ثكلتْ أمُّ الذين مشوا به إلى القبرِ ماذا يحملون إلى القبرِ
وماذا يُوارِى القـــبر تحتَ تُرابه من الخيرِ يا بؤس الحوادث والدهرِ

يا صخرُ كنت لنا عيشًا نعيش به لو أمهلتكَ مُلِمّات المقـــاديرِ
يا صخرُ ماذا يوارى القبرُ من كرم ومن خلائقَ عَفَّـــات مطاهيرِ

* * *

وهى فى هذا كله شاعرة قبيلة ، تبكى سيد القوم وزين العشيرة ، وتقدم لنا الصورة المثالية للفارس العربى فى الجاهلية . وإذا كنا قد لاحظنا عليها التكرار اللفظى والمعنوى ، فهل معنى هذا أن شاعريتها قد جفت ونضبت فى الفترة المتأخرة من حياتها . فلم تعد تجود عليها برائعه ؟ كلا ، فليس من الطبيعى أن تعقم هذه الشاعرية السخية . وإنما ظلت تجود من حين إلى حين ، بمقطوعات بالغة الجمال ، وذلك حين تنزع الشاعرة فى بعض حالات تأملها إلى الاستبطان النفسى ، وتجتر أشجانها الكبار ، فتنكأ جرحها العميق ، وينبعث الشعر من أعماق وجدانها فياضاً بالأسى ، ذاخراً بالحيوية والشجن :

لا تخلَنْ أنّنى لقيتُ رَواحَا بعـــد « صخر » حتى أثبن نواحا
من ضـــميرى بلوعـــة الحزن حتى نَكَأَ الحزنُ فى فـــؤادى فقاحا
لا تخلَنّى أنى نســـيتُ ولا بُلّ فـــؤادى ولـــو شَربتُ القَراحا
ذكر صخرٍ إذا ذكـــرتُ نداهُ عيـــلَ صـــبرى برزئه ثم باحا
دَقَّ عظمى وهاضَ منى جَناحى هُلْكُ صـــخرٍ فما أطيقُ بَراحا

تذكّرتُ صخرًا إذ تغنّتْ حمامةٌ ... هَتوفٌ على غصن من الأيْك تسجعُ
فظلْتُ لها أبكي بدمعٍ حزينةٍ ... وقلبيَ مما ذكّرتْنيَ مُوجعُ

تذكّرني صخرًا وقد حال دونه ... صفيحٌ وأحجارٌ وبيداءُ بَلْقَعُ
أرى الدّهرَ يرمي ما تطيش سهامُه ... وليس لمن قد غاله الدهرُ مرجعُ

ألا مَنْ لعين لا تجفُّ دموعُها ... إذا قلتُ: أقْشَتْ، تستهلّ فتحفلُ[1]
فما بلغتْ كفُّ امرئٍ متناولٍ ... من المجد إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ
ولا بلّغَ المُهْدون فى القولِ مدحةً ... ولا صَدَقوا إلا الذى فيك أفضلُ[2]

وقائلين : تَعَزَّيْ عن تذكّره ... فالصبرَ ، ليس لأمر الله مردودُ
يا صخرُ قد كنت بدرًا يستضاءُ به ... فقد ثوى يوم متَّ المجدُ والجودُ
فاليوم أمسيتَ لا يرجوك ذو أملٍ ... لما هلكتَ وحوض الموت مـوردُ

يؤرّقنى التـذكرُ حـين أمْسِى ... فأصـبح قد بُليتُ بفرط نكسِ
على صخرٍ وأىّ فتًى كصـخرٍ ... ليوم كريهةٍ وطِعـان حلْس
فلم أرَ مثـاه رزءًا بجـنٍّ ... ولـم أرَ مثـله رزءًا لإنْس

. . . . . .

يذكّرنى طلوعُ الشمس صـخرًا ... وأذكره لكل مغيـب شمْس
ولولا كثرةُ الباكين حـولى ... على إخوانهم لقتلتُ نفسى
ومـا يبكونَ مثـل أخى ولكن ... أعزّى النفسَ عنـه بالتأسّى
فلا والله لا أنسـاكَ حتى ... أفارقَ مهجتى ويُشـقّ رمْسى
فقـد ودّعتُ يومَ فراقِ صخر ... أبى حسّـانَ لـذّاتى وأنْسى
فيـا لهْفى عليـه ولهْفَ أمّى ... أيُصْبِحُ فى الضريح وفيه يُمْسى؟

---

(١) أقشت : أصله أقشأت بالهمز أى صارت إلى الانكسار .

(٢) هذا المعنى أخذه أشجع بن عمرو السلمى فقال فى بعض البرامكة :

وما ترك المداح فيك مقالة ... ولا قال إلا دون ما فيك قائل

انظر الشعر والشعراء : ٢ / ٨٦١ .

وبعد ، فإذا كان ما شاب مراثى « الخنساء » المتأخرة من تكلف وتكرار قد جنى على الشاعرة ، فإن ضيقنا به لا ينبغى أن يتجاوز مداه ، ويحرم « الخنساء » حقها فى التقدير المنصف . فلنا أن نقول إن الخنساء قد ازدهاها إعجاب القوم بمراثيها ، واستمرأت طعم التغنى بأشجانها فراحت تنكأ جراحها عامدة ، وتجهد قريحتها لتسعفها بجديد من المراثى فى « صخر » بعد أن بعُد به العهدُ وتراخى الزمن . وألجأها هذا إلى تكرار ألفاظها ومعانيها ، وما كان لنا أن ننتظر أن تنجو من مثل ذلك ، إذا قدرنا كثرة مراثيها من ناحية ، وقصرها على « صخر » فى الفترة الأخيرة من ناحية أخرى .

وبقى للخنساء مع ذلك ، ما يكفى لأن يحفظ لها مكانها المرموق بين شعراء العربية ، وبحسب الناقد المنصف أن يتجاوز عن المكرر المعاد من شعرها ، ليجد للخنساء بعده ما يغنيها عن مزيد .

خاتمة : الميراث الشعرى

ولا أريد أن تمر هذه المناسبة ، دون أن أشير بإيجاز إلى الميراث الشعرى فى بيت الخنساء .

فتماضر قيسية ، وقد اشتهرت قيس بالفروسية والشعر ، وفيها يقول « الأصمعى » :

« أفى الدنيا مثل فرسان قيس وشعرائهم » [١] .

وتماضر سلمية ، ولسليم ديوان شعر قديم ، ذكره « أبو بشر الآمدى » [٢] ومن شعرائهم : خفاف بن ندبة ، وحيان بن حكيم ، وأبو كنانة السلمى ، وعامر بن محكان [٣] . والجحاف بن حكيم السلمى [٤] . وضمضم بن الحارث السلمى [٥] .

وقد كان « عمرو السلمى » أبو الخنساء ، شاعراً [٦] .

وكان « صخر » أخوها شاعراً ، حفظت كتب الأدب عدداً من قصائده ، نقلنا منها فى هذا الكتاب ، ما اتصل بأخته تماضر .

وقد تلقت الخنساء ، كما تلقى أخوها صخر ، هذا الميراث الشعرى العريق ، فكانت شاعرة العربية الأولى ، ثم أورثته بنيها من بعدها ، فكانوا كلهم شعراء !

وقد مر بنا خبر بنيها الأربعة ، الذين استشهدوا فى موقعة القادسية ، وما روى لهم من شعر يومئذ [٧] .

---

(١) فحولة الشعراء : ٣٥ .
(٢) المؤتلف والمختلف : ١٧ ط القدسى .
(٣) حماسة البحترى : صفحات ٥٠ ، ٨٤ ، ٣٤٩ — والأغانى ١٦ / ١٣٤ .
(٤) ابن هشام : السيرة ، ٤ / ٧٥ .
(٥) « : السيرة ، ٤ / ١١٣ ، ١١٤ .
(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ، ١ / ٢٨٩ ، ط السندوبى .
(٧) الاستيعاب والإصابة : ترجمة الخنساء .

وكان ابنها « أبو شجرة بن عبد العزى » شاعراً ، كما نص على ذلك النسابون[١] والإخباريون . وقد نقل « الطبرى » قصيدته الرائية فى حروب الردة ، ونقل كذلك أبياتاً من قصيدة له قالها وهو ينصرف هارباً من مجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لما ذكر قوله :

وروّيت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا[٢]

وابنها « العباس بن مرداس » شاعر مشهور فى الجاهلية والإسلام . ترجم له أبو الفرج الإصبهانى فى (الأغانى) والمرزبانى فى (معجم الشعراء) وابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) . واختار أبو تمام عدداً من قصائده فى (الحماسة) كما اختار له البحترى فى (حماسته) ثمانى قصائد .

وقد كان « العباس بن مرداس » شاعر يوم حنين غير المنازع ولا المنافس ، ويكفى أن يروى له « ابن هشام » عشر قصائد طوال جياد ، قالها يوم حنين[٣] ، شاهدة له بشاعرية خصبة مواتية .

ولم يتخلف هذا الميراث الشعرى ، فى بنت الخنساء « عمرة بنت مرداس » الشاعرة التى وعى ديوان الشعر العربى مراثيها فى أبيها مرداس ، وأخويها ، وولدها الأقيصر .

وكم آسف لأن المجال المحدد لهذا الكتاب ، يقصر إلا عن إشارة عجلى إلى ذلك الميراث الشعرى الأصيل الذى تلقته « الخنساء » عن آبائها السلميين وقبيلتها قيس عيلان مضر ، ثم أسلمته إلى ولديها أبى شجرة بن عبد العزى ، والعباس بن مرداس ، وبنتها عمرة بنت مرداس !

وإنه لجدير بأن يكون موضع دراسة خاصة لهذا البيت الشاعر : بيت الخنساء . . .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ٢٤٩ ، ونسب قريش ٣٢٠ ، ط ذخائر .

(٢) تاريخ الطبرى : حوادث سنتى ١١ ، ١٣ هـ .

(٣) السيرة النبوية : جـ ٤ ، صفحة ٩٣ : ١١٣ .